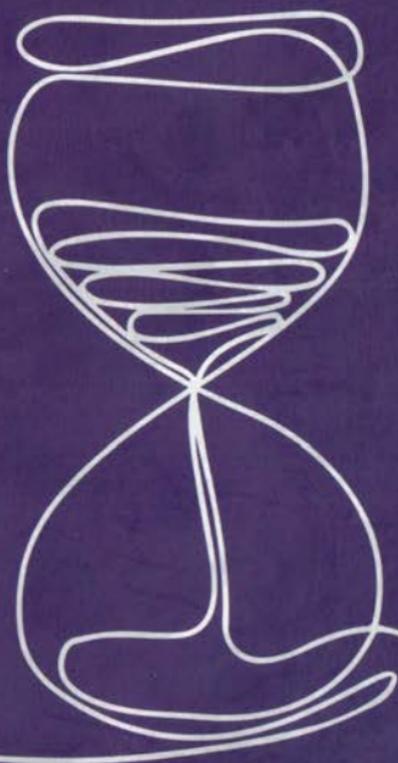


سينيكا

هل
الحياة
قصيرة
حقاً؟!



ترجمة: غدير فيّاض



مكتبة

هل
الحياة
قصيرة
حقًا؟!

الكتاب: هل الحياة قصيرة حقاً؟!

المؤلف: سينيكا

ترجمة: غدير فيّاض

تصميم الغلاف: عبد الفتاح بوشندوقة

التنسيق الداخلي: ضياء فريد

عدد الصفحات: 121

الترقيم الدولي: 9-17-998800-1-978

الطبعة الأولى: 2023

جميع الحقوق محفوظة

منشورات الحياة

البريد الإلكتروني: hayatpublishing1@gmail.com

يمكنكم طلب كتبنا من المتجر الإلكتروني:

hayatbookstore.com

مكتبة

t.me/soramnqraa

سينيكا
مكتبة
t.me/soramnqraa

هل
الحياة
قصيرة
حقاً؟!

ترجمة: غدير فياض

٥

تمهيد

٧

حول قصر الحياة

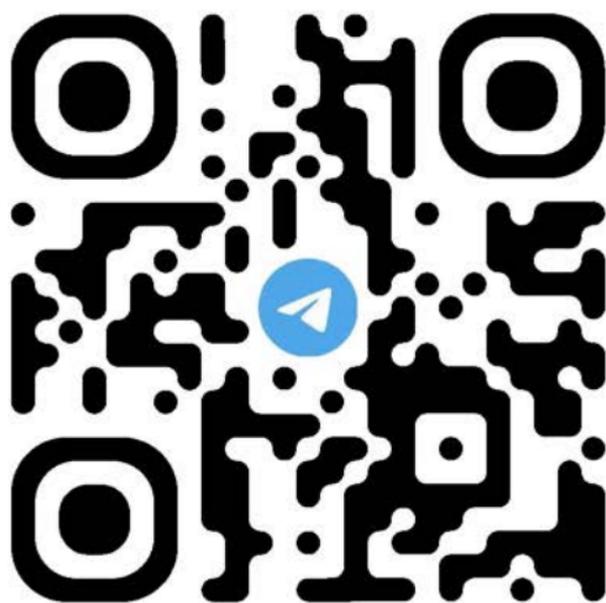
٤٣

مواصلة لهيفيلا

٧٩

حول سكينه العقل

الفهرس من عمل مكتبة



تمهيد

وُلِدَ لوكيوس أنايوس سينيكا الملقَّب بسينيكا الأصغر في قرطبة، سنة 4 ق.م وتوفي سنة 65 م في روما، وهو فيلسوف وسياسي وخطيب ومؤلف تراجيدي روماني.

أبصر سينيكا النور في عائلة غنية كان ثاني أكبر أولادها وكان أبوه (سينيكا الأكبر) معلم خطابة مشهورًا في روما وتمتعت أمه هيلفا بشخصية رائعة وتعليم راقٍ، ونعرف عن أخيه الأكبر غاليو أنه التقى ببطرس الرسول في آخايا سنة 52 م، أما أخوه الأصغر فهو والد الشاعر لوكان.

أخذت خالة سينيكا ابن اختها الصبي معها إلى روما فتدرب هناك على الخطابة وتعلم الفلسفة في مدرسة مزجت مناهجها بين الفلسفة الرواقية ونسكية الفلسفة الفيثاغورية الجديدة، ولما ساءت صحة سينيكا ذهب إلى مصر حيث عاشت خالته وزوجها الوالي الروماني غايوس غالريوس بقصد النقاها، ولم يُعد سينيكا إلى روما إلا في سنة 31 م وحينها بدأ عمله في السياسة والقانون.

من بين تصوراته الفلسفية موقفه الرواقي في فنّ سياسة النفس بحيث يتحكم المرء في رغباته وأحاسيسه ومطالبه العضوية وهو ما يحقق للمرء قدرًا من الاستواء واللامبالاة تجاه الانفعالات بحيث يصل إلى السكينة التي هي منتهى الحكمة والسعادة.

حول قصر الحياة

يشتكي معظم البشر من دناءة الحياة يا باولينوس⁽¹⁾؛ لأننا نعيش لفترة قصيرة فقط، ولأن نسمة الوقت المتسارعة هذه تحمل أوراق العمر بعيداً عنا قبل أن نتهياً لذلك حتى، عدا عدد قليل من الأوراق التي تبقى مستقرّة في مكانها لفترة أطول؛ حيث إنّ الأمر لا يقتصر على عابر السبيل أو مجموعة من الناس الذين يقلقون نتيجة لذلك، فمن وجهة نظرهم، يتجسّد الأمر بشراً كونيّ. ذات الشعور يعتمل خلف التذمّر الخارج من نخبة البشر أيضاً.

ومن هنا أتى قول أعظم الأطباء⁽²⁾: «الحياة قصيرةٌ والفرنُّ طويلٌ». وتباعاً يأتي التذمّر الذي يشكّل آفة فتاكة في حال امتزج مع صفات الرّجل الحكيم، كما جسّده أرسطو حين ألقى اللّوم على الطبيعة لإسهابها بأعمار بعض الحيوانات التي قد تصل إلى خمسة أو عشرة أضعاف أعمار البشر، بينما يرسم حدّاً أقلّ بكثيرٍ للرجال الذين ولدوا لملاقاة مصيرٍ عظيم. لا يتمحور الأمر حول امتلاكنا وقتاً قصيراً للعيش؛ بل حول إضاعتنا للكثير منه. الحياة طويلة بما يكفي، وقد منّنا حصّة الأسد منها لنحقّق أسمى النجاحات لو قمنا باستثمارها بشكلٍ جيّد. ولكن إذا أهدرنا تلك الحصّة في بذخ طائش وأنفقناها على شيء لا طائل منه فستُحكّم قيود الموت قبضتها وترغمنا على إدراك مُضيّ الحياة قبل شعورنا بذلك حتى.

مكتبة

t.me/soramnqraa

(1) أبقراط.

(2) صديق لسينيكأ.

إذن نملك وقتًا كافيًا من الحياة، إلا إننا من نجعلها قصيرة. وبعبارة أخرى: لسنا شحيحي الوقت؛ بل نهدر ما طاب منه في زوايا شتى. تمامًا كما هو الحال حين تقع ثروة وفيرة في يد مالك سيئ فتتلاشى مع الوقت، بينما إذا عهد بثروة ما إلى وصي يستحقها فستأتي بشمار نجاحها مهما كانت الثروة متواضعة. إن امتداد حياتنا يستند بشكل كبير على كيفية استغلالنا لها.

لم نحن دائمو الشكوى اتجاه الطبيعة؟ فهي لم تبدِ سوءًا.. لا، بل تصرّفت بلطف حقًا: الحياة طويلة إن علمنا كيفية استغلالها. ولكن رجل ما يسيطر عليه جشع ضار، وآخر مُنغمس في إنجاز مهام غير مُجدية. رجل غارق في النبذ، وآخر في الكسل. رجل مُنهك بسبب طموحه السياسي والذي دائمًا ما يكون تحت رحمة الآخرين، وآخر بسبب رغبته الحاملة في الربح يقضي حياته ضائعًا بين أبحار وأراضٍ. يعاني البعض من هوس الحياة العسكرية، عازمين دائمًا على إلحاق الآلام بالآخرين، وقلقين من مواجهة المخاطر. وأيضًا هناك تلك الفئة التي تعاني من العبودية الذاتية بالتملُّق لمن يعلوهم شأنًا. الكثير من البشر تائهون في تحصيل أموال غيرهم أو التذمُّر من حصّتهم الخاصة. والكثير أيضًا لا يضعون نصب أعينهم هدفًا ثابتًا؛ بل يمتزجون وفق تقلبات دائمة التغير وغير مرضية بحد ذاتها. البعض لا يملك أهدافًا معينة لمسار حياتهم، فيأتيهم الموت على حين غرة وهم يتشاءبون، لدرجة أنه لا يمكنني الشك بحقيقة تلك الملاحظة النبيلة لأعظم الشعراء: «لا نعيش إلا جزءًا صغيرًا من الحياة حقًا». في الواقع، ما تبقى منها ليس إلا مجرد وقت يمضي. تحيط الرذائل بالرجال وتهاجمهم من كل جانب، ولا تسمح لهم بالنهوض مجددًا، ورفع أعينهم لإدراك الحقيقة، بل تجعلهم غارقين ومكبّلين في رغباتهم.

لن يتمكنوا أبدًا من استعادة ذاتهم الحقيقية، وإن كان هنالك فرصة
لتحقيق بعض السّلام الداخلي، تمامًا كما استمرّار الأمواج في باطن المحيط
حتى بعد توقّف الريح، لن تدعهم تقلّبات أفكارهم ورجباتهم أن يخطوا
بالسكينة. أعتقد أنني أتحدّث عن الذين جاهاوا بفسقهم فقط؟ انظر إلى
أولئك الذين ابتسم القدر لهم: لقد اختنقوا ببركاتهم! وكم من الناس
يجدون ثرواتهم عبثًا! وكم منهم انفجر وعاءهم الدموي بفصاحتهم
وسعيهم اليومي للتباهي بمواهبهم! وكم منهم بهتت أرواحهم من
كثرة الملذّات! وكم منهم اغتصبت حرّيتهم بفعل الحشود المحيطة بهم!
باختصار، انظر للأمر من مُستوياته المختلفة؛ من الأدنى للأعلى: أحدهم
يطلب مساعدة قانونية، وآخر يأتي لتلبية النداء، أحدهم محكوم وآخر
يدافع عنه وآخر يحكم، لا أحد يُطالب بحقه الخاص؛ بل يتمّ استغلال
كلّ شخص من قبل الآخر. اسأل عن الذين حُفظت أسماؤهم عن ظهر
قلب، وسترى أنّهم يتشاركون هذه العلامات المميزة: أحدهم يصقل
الآخر، والآخر بدوره يصقل آخر، ولا أحد يهتمّ بنفسه فقط. ومرة
أخرى، يكشف البعض عن أكثر أنواع الغيظ غباءً: فهم يتدّمرون من
غرور رؤسائهم لأنّهم لم يقابلوهم بحجّة عدم امتلاك الوقت، ولكن
أيّ عقل لأيّ شخص أن يشتكي من كبرياء الآخر في حين أنه ذاته لم يملك
وقتًا لنفسه حتى؟ ومع ذلك - وأيا كنت - فقد حدّق بك الرّجل العظيم
في وقت ما، حتى وإن كانت نظراته مُتعالية، وقد أبداك اهتمامًا واستمع لما
لديك من كلام، وتركك تمشي بجانبه، ولكنك لا تتنازل وتُنظر إلى نفسك
أو تستمع لها حتى. فليس لديك الحقّ في المطالبة بمثل هذا الاهتمام لأنك
لم تبدِ هذا الاهتمام بغيره اكتساب صحبة الآخرين؛ بل لأنك لم تقوَ على
منح نفسك ما تستحقّه من اهتمام.

حتى لو اجتمع جميع المفكرين العظماء عبر التاريخ على التأمل في هذا الموضوع لن يتمكنوا من التعبير عن دهشتهم في هذه الازدواجية للعقل البشري. لا يسمح الرجال لأحد بالاستيلاء على مُمتلكاتهم، وحتى إن كان ثمة نزاعٌ صغير حول حدودهم فإنهم يندفعون لرمي الحجارة وحمل الأسلحة، لكنهم يسمحون لآخرين بالتعدّي على حياتهم، لماذا؟ الأمر مُدهش كيف أنّهم بذاتهم يرحبون بأولئك الذين سيستولون على حياتهم. لن تجد أيّ شخص يشارك أمواله مع الآخرين، ولكن كم منّا يتقاسم حياته! ستجد البشر حريصين حول حماية مُمتلكاتهم الخاصّة، ولكن حين يتعلّق الأمر بهدر الوقت سيبرعون في إهدار الشيء الوحيد الذي يجب عليهم الحرص عليه. فأودُّ أن أخاطب من سبقني جيلاً وأقول له: «ها أنت ذا قد وصلت إلى المرحلة الأخيرة من عمر الإنسان؛ اقتربت من عامك المائة، أو حتى أكثر: هلمّ الآن وقم بمراجعة حياتك. احسب كم أهدرت من الوقت ساعياً لإرضاء دائتك أو تمشي في المدينة مسرعاً بسبب التزاماتك الاجتماعيّة أو تعاقب عبيدك، وكم استغرقت وأنت عاشقٌ أو راعٍ أو عميلٍ أو حتى تتشاجر مع زوجتك. وخذ بعين الاعتبار المصائب الذي رسمناها لأنفسنا، والوقت الذي أضعناه سدى أيضاً؛ ستجد أنّ وقتك المحسوب أقلّ ممّا تتوقّع. تذكّر عندما كان لديك هدفٌ محدد... كم من الأيام مرّت كما خطّطت لها؛ عندما كنت سيّد نفسك ووقتك، عندما كانت تعابير وجهك تملؤها الحياة، وكان عقلك غير مضطرب.

تأمل العمل الذي أنجزته في هذه الحياة الطويلة، وكم من شخصٍ قد نهب من حياتك من دون درايك بالأمر حتى، وتخبّطت مشاعرك بين حزنٍ وفرحٍ أحق، رغبة جشعة وإغراءات المجتمع، انظر كم بقي لك من حصّتك القليلة، ستجد أنّك تحتضر قبل أوّانك».

ما الغاية من ذلك إذًا؟ أنت تعيش وكأنك تنعم بالخلود، متناسيًا أنك ستغدو ضعيفًا يومًا ما، مُهملاً قدرَ ما فات من وقتك وكأنَّ لديك فائضًا لتهدره. إنَّ كلَّ يوم تضيِّعه لأجل شخصٍ أو شيء ما قد يكون يومك الأخير. تتعامل مع مخاوفك كفانٍ، ومع رغباتك كمخلوق خالد لا يموت. يتناهى إلى سمعك الكثيرُ ممَّن يقولون إنَّهم سيتقاعدون ويرتاحون في الخمسين من عمرهم، وغيرهم ممَّن ينتظرون عامهم الستين ليتخلَّوا عن واجباتهم العامة. ما الذي يدعوك للثقة بأنك ستعيش حتَّى ذلك الوقت؟ من سيضمن لك تنفيذَ خططك المستقبلية على النحو الذي تريده؟ ألا تخجل من أن تمنحَ نفسك بقايا العمر، وأن تكترس الحكمة لوقتٍ لا طائل منها فيه؟ كم من المتأخر أن تبدأ حياتك حين عليها أن تنتهي! أيُّ غباء يدفعك لتتناسى طبيعتنا الفانية، وتقودك خططك الحياتية حتَّى الخمسين والستين من عمرك، ساعيًا لتبدأ حياتك من اللحظة التي فشل الكثيرون في العيش إلى حينها.

ستلاحظ أنَّ أكثرَ الرِّجال قوَّة، وأعلامهم شأنًا، يعبرون في بعض الأحيان عن أمنيَّتهم في تحصيل الرِّاحة، يعظِّمونها ويقدرونها أكثرَ من نعمهم الخاصَّة حتَّى. ولا شكَّ أنَّهم يتوقون للنزول من عروشهم الفاخرة بأمانٍ إن استطاعوا؛ فحتَّى ثرواتهم المتكدِّسة لن تكون حصينةً أمام تقلُّبات القدر.

وحتَّى العظيم أغسطس قيصر الذي كرَّمته الآلهة عن سائر البشر لم يتوقَّف عن الصلاة لأجل الراحة والتحرُّر من أعباء الشئون العامة. كافَّة أحاديثه وأقواله تعكس رغبته الجارحة في تحصيل الرِّاحة. فقد اعتاد أن يحفِّز نفسه بهذا الأمل الزائف، على أنَّه في يوم ما سيتمنح نفسه ما تستحقه من راحة. وفي رسالة كتبها إلى مجلس الشيوخ، وبعد تعهده بأن راحته

لن تقلل من شأنه أو تناقض أمجاده السابقة، أقتبس بضع كلمات منها: «ولكن هذه الأمور يجب إظهارها بالأفعال لا بالوعود، ومع ذلك، بما أن الواقع المبهج لا يزال بعيداً فإن تطلعي إلى تلك الفترة التي صليت من أجلها دفعني إلى التماس جزء من بهجتها في المتعة النابعة عن الكلمات».

كان شأن الراحة عظيمًا جدًا بالنسبة إليه، لدرجة أنه لم يستطع التمتع بها في الواقع، بل عاشها مسبقًا في خياله. ذلك الذي رأى كل شيء يعتمد عليه وحده، والذي قرّر مصير الأفراد والأمم، فكّر بسعادة بذلك اليوم المستقبلي الذي سيضع فيه عظمته جانبًا. أدرك كم كلفه ذلك النعيم الذي جلبه إلى بلاده من جهد وكدح، وكم من مخاوف دُفنت تحته. أُجبر على الصراع ضدّ أبناء وطنه أولًا، ثمّ ضدّ زملائه، وأخيرًا ضدّ أقاربه، سفك الدماء في البرّ والبحر، سُحب لمشاركة القتال في مقدونيا وصقلية ومصر وسوريا وآسيا - جميع البلدان تقريبًا -، وعندما سئمت قوّاته من إراقة دماء الرُّومان، وجّه سيفهم إلى حروبٍ خارجية. وبينما كان يعمل على تهدئة مناطق جبال الألب وكبح الأعداء في وسط إمبراطوريته المسالمة، وبينما كان يعمل على توسيع حدود تلك الإمبراطورية إلى ما وراء نهر الراين والفرات والدانوب، وفي روما نفسها؛ كان كل من مورينا⁽¹⁾ وكاييو⁽²⁾ وليبيدوس⁽³⁾ وإغناطيوس يشحذون سيفهم استعدادًا لقتله. لم ينعم بالراحة من مؤامراتهم ضده قط، فعندما كانت ابنته وجميع الشبان النبلاء

(1) كان لوسيوس ليسينيوس مورينا سياسيًا وجنديًا رومانيًا. كان ضابطًا (مندوبًا) في الحرب الميثريداتية الثالثة.

(2) جنرال ورجل دولة روماني.

(3) ماركوس أميليوس ليبيدوس: كان أحد الأوثوكس الرومان الذي كان جزءًا من الحكم الثلاثي الثاني إلى جانب غايوس يوليوس قيصر أوكتافيانوس وماركوس أنطونيوس، وآخر بوتيفيكس ماكسيموس من الجمهورية الرومانية. كان ليبيدوس سابقًا حليفًا وثيقًا ليوليوس قيصر.

الذين ارتبطوا بها بالزنا - كما حال الارتباط بقسم مقدس - يترقبون ضعفه في سنوات شيخوخته، كان هناك يولوس برفقة امرأة مُرتبطة بأنطوني⁽¹⁾ أيضًا. حاول قطع تلك الآفات وإبعادها عنه، ولكن من دون جدوى، فستحلُّ مكانها أخريات: كما هو الحال مع جسد مليء بأمراضٍ خاملة، سيكون عرضةً لأن تستفيق إحداها في أي لحظة. ولذلك كان يتوقُّ للراحة، وبينما كانت آماله وأفكاره تتمحور حول هذا الأمر وجدَّ ملاذَّ السكينة لأعماله: تلك كانت أمنية الرجل الذي لَبَّى آمنيات الجنس البشري.

عندما تمَّ إلقاء ماركوس شيشرون⁽²⁾ بين رجال مثل كاتيلين⁽³⁾ وكلوديوس⁽⁴⁾ وبومبيوس⁽⁵⁾ وكراسوس⁽⁶⁾ - بعضهم أعداء صريحون وبعضهم أصدقاء مشبهون - وبينما كان يتمُّ دفعه جيئةً وذهابًا مع مصائب الدولة؛ حاولَ جاهدًا الحفاظ عليها من الدمار، إلى أن جُرف بعيدًا في نهاية المطاف. لم ينعم بالراحة في فترة الرِّخاء أو حتَّى بالصبر في الشدائد. كم من المرَّات لعنَ فيها فترةَ حكمه، والتي كان يمجدُّها باستمرار، حتَّى لو من دون سبب! يالها من كلمات مُحزنة استخدمها في خطابه لأتيكوس، عندما تمَّ غزو بومبيوس الأكبر، وبينما كان ابنه ما يزال يحاول استعادة ذراعيه المُمزقتين في إسبانيا! «أتريد أن تعلم» قال: «ماذا أفعل هنا؟ أنا مقيمٌ في الفيلا خاصَّتي في توسكولان وكانني نصف مسجون». ثمَّ أضحى يندب حياته السابقة ويشتكى من الحاضر ويأس

(1) كان قائدًا وسياسيًا وفضلاً رومانيًا.

(2) رجلٌ دولة روماني، ومحامي وباحث وفيلسوف ومشكك أكاديمي.

(3) رجلٌ أعمال روماني وجندي، وعضو مجلس الشيوخ.

(4) بوبليوس كلوديوس بولكر هو سياسي شعبي روماني.

(5) بومبيوس: هو ابنُ القائد الكبير جاليونيوس بومينيوس الذي قاد الحربَ في إيطاليا.

(6) ماركوس ليكينيوس كراسوس: كان قائدًا عسكريًا رومانيًا وسياسيًا، قاد نصر سولا الحاسم في معركة البوابة الكولينية.

المستقبل. أطلق شيشرون على نفسه «نصف سجين»، ولكن في الحقيقة، الرجل الحكيم لن يجرؤ على استخدام مثل هذا المصطلح المُشين.

مَنْ يمتلك حريةً ثابتة غير منقوصة لن يكون أبدًا نصفَ سجين، سيكون حرًا وسيد نفسه وفوق كلِّ الآخرين. فمَنْ يمكن أن يعلوه هو الذي تغلب على القدر.

عندما اقترح ليفيوس دروسوس -وهو رجلٌ جريء وقوي، وبدعم من حشدٍ ضخم من جميع أنحاء إيطاليا- قوانينَ شابهت سياسة الأخوين غراتشي⁽¹⁾ الشريرة. وبعد أن فشل في إيجاد مخرج لسياسته التي عجز عن تنفيذها أو التخلي عنها بعد أن بدأها؛ قيل إنّه اشتكى بمرارة من حياة الاضطرابات التي لازمته منذ ولادته، وصرخ متذمرًا من حاله، وقال بأنّه الشخصُ الوحيد الذي لم يحظَ بيوم راحة قط؛ لأنّه -وفي أيام صباه- كان يملك ما يكفي من الشجاعة ليدافع عن بعض الرجال المتهمين أمام هيئة المحلفين، واكتساب النفوذ ضمن المحاكم القانونية، حيث إن تأثيره الكبير سمح له بأن يسنَّ بعض الأحكام التي تصبُّ في صالح موكله. ولكن إلى أيّ مدى كان هذا الطموح سابقًا لأوانه؟ ربما كنت تعلم أن مثل هذه الجرأة المبكرة ستؤدّي إلى مشكلة رهيبة في الحياة العامة والخاصة على حدّ سواء؛ ولذا فإنّه قد تأخر جدًّا في الشكوى من أنه لم يحظَ براحة قط، حيث اعتاد منذ طفولته على إحداث مشاكل خطيرة في ميادين النقاش كافة. لا يمكن الجزمُ فيما لو أنّه تسبّب في مقتل نفسه، خاصّة بعد أن انهارَ

(1) كان الأخوان جراتشي، «تيريوس» و«غايوس»، من الرومان، خدم كلاهما كمناصرين من الفلاسفة. لقد حاولوا إعادة توزيع الأرض العامّة التي كان يسيطر عليها حتى الآن الأرستقراطيون بشكل أساسي، على فقراء الحضر وقدامى المحاربين، بالإضافة إلى إصلاحات اجتماعية ودستورية أخرى. بعد تحقيق بعض النجاح المبكر، اغتيل كلاهما من قبل الفصيل المحافظ في مجلس الشيوخ الذي عارض هذه الإصلاحات.

إثر جرح مُفاجئ في الفخذ، يشكُّ البعض من أن موته كان طوعياً، ولكن لا شك أن أوأته قد حان.

ليس من الضروري أن نذكرَ المزيدَ من أولئك الذين كانوا بنظر الكثيرين سُعداء؛ لأنَّ هؤلاء قد عبَّروا عنِ اشمئزازهم من كلِّ ما فعلوه في حياتهم وكانت كلماتهم خيرَ دليلٍ على ذلك، لكنَّهم -ومن خلال هذه الشكاوى- لم يغيِّروا من أنفسهم، ولم تكنْ عبرةً للآخرين حتَّى، فإنهم وبمجرّد أن ينتهوا من التنفيس عن مشاعرهم بالكلمات لا يلبثون أن يقعوا في دوامة أخطائهم من جديد، ويعودون إلى وضعهم المعتاد.

بلا شك، إنَّ حياتكم ولو كان مقدَّراً لها الامتداد لألف عام، سيتمُّ اختزالها إلى أبعد حد: ستلتهم رذائلكم أي قدرٍ من الزمن مهَّما كان طويلاً. فالوقت الفعلي المتاح لك -الذي يمكن للعقل أن يُخيله لك على أنه طويل جداً رغم تسارعه الطبيعي- يهرب منك بسرعةٍ حتمًا؛ لأنَّك لا تحاول أن تحكم قبضتك بالسيطرة عليه، أو إعاقته، أو حتَّى تأخير أسرع العناصر في هذا العالم، بل تتساهل في التَّعامل معه إلى الحدِّ الذي يُشعرك بأنه شيء بلا قيمة أو قابلٌ للاستبدال.

ولكن من بين جميع الأشخاص الجانحين، أجد أن أولئك الذين يهدرون أوقاتهم بين سُكرٍ وشهوة، هم الأسوأ على الإطلاق، فلا شيء أكثرُ خزيًا من هذه الاهتمامات. أمَّا الآخرون، وحتَّى لو كانوا يرتدون ثيابَ مجدٍ زائفة، فإنهم يعانون من وهمٍ مُحْتشم. تستطيع إدراج قائمةٍ تعجُّ بالذين تملكهم البخل، أو الذين اقتادهم الغضبُ الناري إلى أن تمادوا في حقدهم وحروبهم الظالمة، إلا إنَّ هؤلاء جميعًا يُخطئون بطريقةٍ أكثرَ رجولية. إنَّ أولئك الذين انحدروا في طريق الشراهة والشهوة قد تلطَّخوا بالعار. أمعن النظرَ في وقت هؤلاء الأشخاص جميعًا، انظر كم

من الوقت يكرسون لأموالهم، ولنضِب الأفخاخ للآخرين، وخوفهم من تلك المنصوبة من أجلهم؛ في محاكمة آخرين أو أنفسهم حتى، في تحصيل أو دفع كفالة، انظر كم من الوقت يستغرقون في ولائهمم (والتي تعتبر الآن عملاً رسمياً)؛ سترى أن ممارساتهم - جيدة كانت أم سيئة - لا تمنحهم الوقت للتنفس حتى.

أخيراً، يتفق الجميع على أنه لا يمكن لشخص مُنغمس في العديد من الأمور أن ينجح في مسعاه - ولا حتى في الدراسات البلاغية أو الحكمة - حيث إن تشتت عقله يُعيقه ويمنعه من التعمق في الأمور، ومحاولة حشر الأفكار تؤدي إلى رفض العقل لها ليس إلا. فالرجل دائم الانشغال لا يملك الوقت للتفكير في حياته وكيفية عيشها؛ ولكن إن جاز التعبير ليس هنالك شيء أصعب من إتقان الطريقة الصحيحة للعيش. ويا لكثرة المعلمين الذين يعلموننا أنواعاً شتى من العلوم، تجدهم في كل مكان، حتى أضحى الأطفال بذاتهم قادرين على تعليمها. ولكن، تعلم فن العيش يستغرق حياة المرء كاملةً، والذي قد يفاجئك أكثر أنه قد يستغرقك الأمر طول الدهر لتعلمك كيف تموت. حري بنا القول بأن العديد من الرجال العظماء جعلوا من معرفة فن العيش هدفاً نصب أعينهم، وأولوه اهتماماً خاصاً، متخليين عن أعبائهم وثرواتهم وأشغالهم ومُتعمهم. ومع ذلك، علي القول - أيضاً - إن الغالبية منهم لم يصلوا إلى مُبتغاهم، وقلّة منهم تذوقوا لذة الانتصار في تحقيق ما أرادوه. صدقني، يتطلب الأمر رجلاً عظيماً. رجل قادر على أن يرتقي فوق نقاط الضعف البشرية حتى يستغل وقته بالشكل الأمثل، ولا يسمح للوقت أن يتسرب من بين أصابع كفي عمره، ونتيجة لذلك، ومن خلال تكريسه جل وقته لنفسه، تُمسي حياة هذا الرجل طويلة جداً. خاصةً بعد أن جعله في ذروة أولوياته ولم يهدره دونها فائدة، أو حتى تركه رهينة الآخرين؛ فقد أحسن

تثمينه ولم يرَ أن ثمة شيئاً ما يستحقُّ أن يقايضه ولو بجزءٍ صغيرٍ من وقته. وهو بما فعل امتلك ما يكفي من الوقت لحياةٍ طويلة، بينما أولئك الذين تاهوا بين أنفسهم ولم يقدرُوا وقتهم حقَّ قدره جنحت بهم الأقدار، ولم تترك لهم سوى فتاتِ الزمن وبقايا العمر.

ليس هناك ما يجعلك تفترض أن أولئك لا يعون حجمَ خسارتهم الحقيقية في بعض الأحيان. فالتأكيد، ستسقطُ على مسامعك صرخاتُ مَنْ أنقلتهم ثرواتهم ورفاهياتهم، ستجدهم مُنهمكين بينَ عملائهم أو خلال مرافعاتهم في المحكمة ومآسيهم الفاخرة الأخرى، يصيحون «لا تتسنى لي الفرصة للعيش». وهذا صحيح، بالتأكيد لا فرصة لديهم، فالجميع يلهونك بأموارهم ويصرفون انتباهك عن ذاتك. فكر في عددِ المرات التي أهدرتَ بها وقتك في التفكير بأموال المدعى عليه أو الزبون أو المرشَّح، وبتلك المرأة العجوز التي أهدرت وقتها في جمع ثروتها، وذلك الرجل الذي يتمازض بُغية إثارة طمع صائدي إرثه، وذلك الصديق الذي أوهمك بأنك من أعزُّ أصدقائه وتعاملَ معك على أنك تابع له بعد أن أغواه حبُّ السيطرة. أمعن النظرَ في تفاصيل حياتك جيداً وستعرف أن ما لديك من الوقت ليس إلا القليل. رجلٌ جعلَ من الحصول على النفوذ والسلطة هدفاً أولاه جلَّ اهتمامه، وباتَ محورَ صلواته، لن يلبث بعدَ حصوله عليه أن يكرّر جملة «متى سينتهي هذا العام؟»، وآخرُ يقدر عالياً الألعاب التي يستضيفها ويقدمها، ثم لا ينفكُّ عن صياحه قائلاً «متى سأتلخص منها؟»، وذلك المحامي الذي سعى أن يكون مقصداً للناس، وبعد أن أمسى في مقامه الرفيع الذي صبا إليه وبات يُتفقَى به في قاعات المحاكم؛ يبدأ بالتغافل عن ذلك كله، و ينتظر وقتَ راحته بفارغ الصبر، ويصبح سؤاله دائماً التكرار «متى سيحلُّ وقتُ الإجازة؟». ما يمكننا قوله هو إنَّ الجميع محاطون بالأعمال التي تجعلهم مشغولين في

حاضرهم، قلقين من مستقبلهم. لكن ذاك الشخص الاستثنائي الذي يكرس وقته لاحتياجاته الخاصة، ويعيش يومه وكأنه الأخير؛ لن تكدره الأعباء ولن تؤرقه الهموم. فما هي المتاعُ الجديدة التي يمكن أن يخوضها في هذه الساعة؟ باتت جميعها معروفة بالنسبة إليه حتى أئحمته. ولذلك، يمكن للأقدار أن تعصفَ به كيفما تشاء. وصلت حياةُ هذا الرجل إلى برِّ الأمان بالفعل. لا يمكن أن تسلبها شيئاً؛ بل الزيادةُ عليها فقط. الأمرُ أشبه بزيادة كمية الطعام لشخص قد شبع بالفعل لكنه يستطيع الاحتفاظَ بالمزيد. فلا يجب الحكمُ على رجل بأنه عاش طويلاً بناءً على شيب شعره أو تجعد جلده؛ هو لم يعيش طويلاً بل كان موجوداً لفترةٍ طويلة. كرحلة رجل في عرض البحر، أحاطت به العواصفُ من كلِّ حذب وصوب، لاطمته الأمواجُ وأمست رحلته الطويلة رحلةً معاناة وسقم، ذلك تماماً معنى أن يعيش الرجلُ لوقتٍ طويلٍ دون أن يستمتع بكلِّ ثانية منه.

ما يشير غرابتي وحتى دهشتي ذلك الاستهتار بقيمة الوقت، بعضُ الرجال يطلبون وقتاً من آخرين، وأولئك متساهلون جداً في منحهم إياه. والطرفان لا يعيران انتباهاً للوقت ذاته، إنَّما يركِّزان على السبب الذي يكمنُ وراء الطلب. هؤلاء الرجال يستخفون بأثمن شيء على وجه الأرض، وعلَّةُ هذا الاستخفاف أنه ليس من الماديات أو ممَّا يمكن للعين أن تراه، وهذا ما يجعلهم يتعامون عنه ويُشعرهم بأنَّه بلا قيمةٍ على الإطلاق. البشر يُفنون حياتهم بادخارِ معاشاتهم وتأميناتهم، يكرِّسون أعمالهم وخدماتهم وجهودهم في سبيل ذلك. لكن لا أحد يعطي قيمة للوقت، فالجميع يستهترُ به كما لو أنه لا يكلف شيئاً، لكنك -وإذا نظرت إلى هؤلاء الناس أنفسهم، وإذا ما أصابهم مرض أو اقترب الموت من أعينهم- ستراهم كيف يتوسَّلون الأطباء ويستجدونهم حلولاً ليستعيدوا عافيتهم، وإذا ما صدرَ بحقهم حكمٌ بالإعدام على سبيل

المثال، انظر إلى أيّ مدى هم مستعدون أن ينفقوا ما أوتوا من ثروةٍ وجميع ما اكتنزوه لأجل العيش. يا لمقدار حجم التناقض في مشاعرهم! وفي حال تسنى لنا معرفة عدد السنوات التي سنعيشها بعد، كما هو الحال مع السنوات التي قضيناها، فكم سينتاب القلق أولئك الذين أدركوا أن ما بقي لهم ليس إلا القليل، وإلى أيّ مدى سيحرصون على استثماره بعناية! بالرغم من أن تنظيم الفترات المضمونة يُعدُّ أمرًا سهلًا مهما كانت تلك الفترات صغيرة؛ إلا إننا علينا الحذر في الحفاظ على تلك التي ستتهي في ميعاد غير معلوم.

ولكن لا يوجد ما يدعوك للاعتقاد أن هؤلاء الناس لا يعون أهمية الوقت أو يقدرّون قيمته. فهم في حالات حُبهم وهيامهم يتعهّدون بتقديم السنوات من عمرهم لصالح من يحبون. وهذا ما يفعلونه حقًا من دون إدراكهم، والنتيجة أنهم يخسرون سنوات حياتهم من دون أن يزدوا في سنوات من يحبون. ولكن ما لا يعرفونه هو ما إذا كانوا يخسرون، وبالتالي يمكنهم تحمّل خسارة شيء لا يُصنّف كخسارة في إدارتهم. ومع ذلك لن يعيد أحدُ السنين إلى الوراء، ولن يمنحك أحدُ فرصةٍ أخرى لتعيش لنفسك. الحياة مستمرة، وستتابع مسيرتها التي بدأتها، لن تحيدَ عن مسارها ولن تعكسه، لن تُصدَرَ ضجيجًا أثناء سيرها لتذكرك بسرعتها. سيخيّم الصمتُ ولن تنتظر الحياة أمرًا ملكيًا أو حماسًا جماهيريًا لتطيل من أيامها. إنه مسارٌ مرسومٌ مسبقًا بدأته ولن تميلَ أو تنحرف عنه، ولن تتأخر في الوصول إلى نهايته. ماذا ستكون النتيجة؟ لقد كنت مشغولًا بينما كان الوقتُ يسير ويمضي مقتربًا بك إلى أجلك ونهايتك، ولا مفرّ لك من ذلك.

كَمْ هو ساذج تفكير أولئك الذين يتباهون ببصيرتهم ونظرتهم المستقبلية الثاقبة؟ يدفنون أنفسهم تحت تراب الانشغال أملاً بحياة أفضل؛ يمضون وقتهم في وضع الاستعداد. يخططون لأهدافهم في المستقبل البعيد. ويا ليتهم يعلمون أن أكبر مضيعة للحياة هو التأجيل؛ لأنه يجرمهم من أيامهم، ويسرق منهم حاضرهم لقاء وعدٍ مستقبليٍّ بشيء أعظم. إنَّ التوقع والترقب في غدٍ أفضل ما هو إلا عائقٌ للعيش، يتركز أملاً بالمستقبل ويسرقُ منك تفاصيلَ يومك الجاري. فأنت تقارع ما هو تحت سيطرة القدر، تاركًا وراءك ما يقبع تحت سيطرتك بالفعل. إلام تنظر؟ إلام ترمي؟ ما من شيء أكيد في غياهب المستقبل؛ ابدأ في الحياة من فورك، عش اللحظة واليوم والواقع الذي أنت فيه. واستمع إلى نحيب شاعرنا العظيم، كما لو أن كلماته مُستوحاة من كيانٍ إلهي:

«أجمل يوم في حياة البشر التعمساء هو أول ما يمضي».

يقول لك «لماذا تتوانى؟»، «لماذا أنت خامل؟ ما لم تغتنم يومك فهو ذاهب إلى غير رجعة». وحتى في حال اغتنامك له، سيذهبُ إلى غير رجعة أيضًا؛ لذا عليك أن تدخل منافسةً شرسةً مع الزمن، متحديًا إياه في سرعته وكأنه سيلٌ مندفع لكنه ليس أبديًّا التدفق؛ عليك مواكبته. ففي لقاء اللوم على التأخير اللامتناهي، لم يذكر الشاعر «أجمل دهر»، بل قالَ وضوحًا «أجمل يوم». أيها اللاهثون خلف أعمالكم وأشغالكم استفيقوا من غيبوبيتكم، مهما كنتم جشعين، لماذا أنتم غير مهتمين رغم أن الوقت يمضي بسرعة الضوء أمام ناظريكم، تكدسون شهورًا وسنينًا أمامكم! فالشاعرُ يخبركم عن ذلك اليوم؛ ذلك اليوم الذي تعيشونه ويهرب منكم، فهل مازال من شكٍ لدى البشر البائسين أن أجمل يوم هو أول ما يمضي؟ اعتلتِ الشيخوخةُ تفاصيلَ ملاحظهم، وهم في عقولهم أطفالٌ

غير مستعدين، يُداهمهم الكبر، ويفوتهم قطارُ العمر بغتةً. لقد غفلوا عن ذلك غير مُدركين اقترابه يوماً بعد يوم، كما لو أنهم مسافرون انغمسوا في القراءة وتبادل الأحاديث أو لجؤوا إلى التأمل العميق في هموم دنياهم، ليتفاجئوا بوصولهم إلي وجهتهم قبل إدراكهم لذلك حتى. تلك هي تماماً رحلة الحياة، وهذا تماماً ما نقوم به بوتيرة ثابتة. أولئك المنهمكون بأشغالهم لا يدركون ذلك إلا في نهاية الرحلة.

إن أردتُ أن أقسمَ فكري الرئيسيةً إلى عناوين مختلفة، وأطرح الدلائل عليها؛ سأجدُ أمامي العديدَ من الجدالات لأثبت أن أولئك المنهمكين يجدون الحياة قصيرة جداً. ولكنَّ فايانوس -الذي كان من نوع الفلاسفة المتعلقين بالمعتقدات القديمة، لا الجدد منهم الذين تلقوا تعليماً أكاديمياً- قد اعتاد أن يقول بأنَّ علينا أن نهاجم العاطفة بالقوة الغاشمة لا بالمنطق، وأنَّ خطوط العدوِّ يجب اجتثاثها بهجوم ضارٍ لا بوخزهم بالعصي؛ لأنَّ الرذيلة يجب أن تمزق إرباً لا أن توخز وتخزاً. ومع ذلك، من أجل أن يُلام الناس على أخطائهم التي قد ارتكبوها، يجب أن يتمَّ تعليمهم لا أن يتمَّ تسليمهم عراة للضلال.

فالحياة تنقسم إلى ثلاثِ فترات: الماضي والحاضر والمستقبل. منها الحاضر قصير، والمستقبل لا يمكن التنبؤ به، والماضي نحن متيقنون منه. فبالنسبة إلى الأخير، لقد فقدَ القدر سطوته عليه، فلا يمكن لأيِّ شخص أن يخضعه من جديد. ولكنَّ هذا ما يخسرُه الأناس المنهمكون؛ لأنَّهم لا يمتلكون الوقتَ لينظروا للخلف.. إلى ماضيهم، وحتى ولو فعلوا فليس من المُمتع استذكُّارُ أعمالهم خجلون منها. لذلك هم يثنون عن استرجاع الأوقات التي قد أهدروها، أوقات هم لا يجربون على إعادة عيشها إن تهيأت رذائلهم التي في ذاكرتهم بوضوح فيها،

وحتى تلك الرذائل التي كان نهجها مثلثًا بمفاتيح بعض المتع اللحظية. لا أحد يسترجع الماضي عمدًا، إلا إن نجحت جميع أفعاله في اجتياز رقابته الذاتية التي لا يمكن خداعها. الشخص الذي عليه أن يخشى من ذاكرته هو الذي كان طموحًا في طمعه، ومتعجرًا في قلة احترامه، خارجًا عن السيطرة في انتصاراته، ميالًا للخيانة في خداعه، طمأعًا في نهيه، ومفرطًا في تذييره. ورغم ذلك، هذه هي الفترة من حياتنا التي هي مكرسة ومقدسة، التي اجتازت جميع المخاطر البشرية وأزيلت من سطوة القدر، الفترة التي لا يمكن أن تزعجها الحاجة أو الخوف أو هجمات المرض، لا يمكن التأثير عليها ولا انتزاعها منّا؛ هي أمرٌ أبديٌّ نحوزه لا يمكن تكديره. في الحاضر نحن نعيش يومًا بيوم، وكل يوم يقدم لنا دقائق لنعيشها دقيقةً بدقيقة. ولكن جميع أيام الماضي تخزن في مكتبة العقل حين أن تطلب؛ يمكنك أخذهم والاطلاع عليهم عندما ترغب، أمرٌ لا يمتلك المنهمكون وقتًا لفعله، إنه العقل الذي ينعم بالسكينة، والخالي من الهموم من يمكنه أن يتصفح جميع مراحل حياته، كأن عقول المنهمكين محكمة بنير، ولا يمكنها الالتفاف والنظر خلفها؛ لذلك تنقلب حياتهم جحيمًا. وتمامًا كما لا يوجد فائدة من سكب أي مقدار من سائل في وعاء لا قاع له ليلتقطه ويحتفظ به؛ لا يهم كم من الوقت قد منحنا إن كان ليس هناك مكانٌ ليستقر فيه.. إنه ينفذ عبر الشقوق والثقوب الموجودة في العقل. إن وقت الحاضر قصير للغاية، قصيرٌ لدرجة أن بعض الناس لا يدركونه؛ لأنه لا يتوقف عن الحراك، متدفقًا بعجالة، إنه ينفذ قبل أن يأتي، ولا يتأخر أكثر مما تتأخر الشمس أو النجوم في الظهور، تلك التي حركتها الدائمة لا تتوقف في نفس المكان أبدًا. وكذلك هم المنهمكون يهتمون بالحاضر فقط، وهو قصيرٌ لدرجة أنه لا يمكن الإلمام به، وحتى هذا ينهب منهم وهم منهمكون في إلهائهم الكثيرة.

باختصار، أتريد أن تعلم كيف لا يعيشون طويلاً؟ أترى كم هم متحمسون لأن يعيشوا طويلاً. عُجَزَ واهنون يصلون لأن يجيوا بضعة سنين أخرى، يتظاهرون بأنهم أصغرُ سنًا عما هم في الحقيقة، ويواسون أنفسهم بهذه الكذبة ويخدعونها بحماسة كما لو كانوا يُخدعونها هي والقدر في آنٍ معاً، ولكن عندما يأتيهم مرضٌ ما أخيراً ليذكّرهم بأنهم ليسوا خالدين؛ كم تبدو ملامح الدُعر ظاهرة عليهم عندما يموتون، وكأنّ المنية لم تكن تأخذهم من الحياة فقط بل تسحبهم عنوةً منها. يصيحون بأنهم كانوا حمقى لأنهم لم يعيشوا حقاً، وأنهم لو تعافوا من هذا المرض سيعيشون عيشة رَعْد، ثم يتذكرون كيف اقتنوا -عبثاً- أموراً لم يكونوا ليستمتعوا بها أبداً، وكيف أنّ كلّ جهودهم قد ذهبت سدى. ولكن بالنسبة إلى أولئك الذين خلت حياتهم من أيّ انشغال فلا بدّ وأنها طويلة للغاية.. لا شيء منها قد بُدّد، ولا شيء قد بُعِثَ هنا أو هناك، لا شيء مُتروك وديعة عند القدر أو زائد عن حاجته، لا شيء قد ضاع بسبب الإهمال ولا أهدر على الهبات؛ لقد استثمرت بكاملها بشكل جيد إن جاز التعبير؛ لذلك مهما كانت قصيرة فهي وافية تماماً، لهذا عندما تأتي أيامه الأخيرة لن يتردّد هذا الرجل الحكيم ولو للحظة وهو يخطو ليقابل حتفه.

قد يُثار لديك التساؤل عمّن أذعوهم بالمنهمكين؟ عليك أن تعي أنّي لا أقتصرُ بالإشارة على أولئك الذين ينتظرون حراسهم الشخصيين للخروج من قاعات المحاكم، أو أولئك الغارقين بين حشودهم المؤيدة أو حشود منافسيهم، أو الذين تقتادهم التزاماتهم الاجتماعية من منازلهم وتلقي بهم أمام عتبة باب شخص آخر، ولا أولئك المنخرطين في جمع مكاسب غير شرعية والتي سيواجهون عواقبها يوماً ما؛ فبعض الرجال منهمكون في أوقات راحتهم حتى في منزلهم الريفي، متدلّون على أريكتهم، في عزلتهم، حتى عندما يكونون بمفردهم تماماً ما من صحبة

أسوأ لهم من أنفسهم. لا يمكنك أن تدعو حياتهم بالمرقفة، بل إنها انشغالٌ شامل. فهل لك أن تدعو رجلاً بالمرقفة لمجرد أنه يقضي وقت فراغه بالاعتناء بقطع البرونز الكورنثي الباذخ الترف، مختالاً بقيمتها بسبب هوس حفنة من هواة الجمع، ويهدر الجزء الأكبر من يومه على قطع النحاس الصدئة تلك؟ وهل تسمي رجلاً تسيطر عليه حماسه بينما يشاهد جولات القتال في حلبات المصارعة رجلاً مرقفها؟ (باللعار نحن نعاني من رذائل ليست رومانية الأصل حتى).

أو آخر يصنّف قطعانه إلى أزواج حسب اللون والعمر؟ ذاك الذي يدفع لقاء الحظي بأقوى الرياضيين بأفضل حال؟ مجددًا، أتعوهم بالمرقفين أولئك الذين يقضون ساعات طويلة عند الحلاقين لمجرد قص الشعر الذي نما بين ليلة وضحاها، لإجراء محادثات مفصلة حول كل خصلة شعر فيما لو كانت تتلدى على جبينهم أم لا؟ كم سيمتعضون إن كان الحلاق مهملاً بعض الشيء، كما لو كان يشذب رجلاً بحقاً كم سيستثيطون غضباً لو أنه قام بقص بعض من خصلات شعرهم خطأ، أو أنها أصبحت لا تناسب تسريحتهم المفضلة؟ من منهم لن يمانع أن تُخرب بلاده بدلاً من تسريحته؟ من منهم لن يكون حريصاً على أناقته أكثر من سلامته؟ من منهم لن يفضل أن يكون مشذباً على أن يكون مكرمًا؟ أتعو أولئك الذين قضوا وقتهم بين مرآة ومشط بالمرقفين؟ وماذا عن الذين يشغلون أنفسهم بتأليف الأغاني وسماعها وتعلمها، ويحورون أصواتهم إلى نغمات غير طبيعية، مُتناسين أصواتهم الطبيعية الأكثر شجناً، يحاولون جاهدين تعديل الأصوات في رؤوسهم، الذين لا تفارق شفاههم تمتمات نغمات حتى عندما يُستدعون إلى الأمور الجادة أو إلى مناسبات حزينة؟ تلك ليست راحة بل انشغالٌ غبي. ويا للمصيبة بالنسبة إلى موائدهم، لا يمكنني احتسابها من أوقات الراحة حين أرى

أعيَنَهُم جاحِظَةً تلاحق أدقَّ تفاصيل ترتيب أطباق الفضة، ومدى الاهتمام الذي يولونه لستراتِ طعام أولادهم، وكيف يحرصون على إتمام طبّاخهم لعمله على أتمّ وجه في طهي اللحوم، أو كيفية تقديم الأطباق بالطريقة اللبقة، وتسارع خدمهم بوجوههم المُبتسمة أمام ضيوفهم، متراكضين لتنظيف بُصاق السَّكّارى، يحاولون بهذه الوسائل إظهار السمعة الحسنة بالأناقة والذوق الرّفيع، متناسين إخفاقاتهم في مجالات حياتهم الخاصّة، بحيث لا يمكنهم الاستمتاع بتناول الطعام والشراب من دون تباؤ حتّى!

ويمكنني -أيضاً- استبعاد تلك الفئة من الطبقة المرفهة التي تنتقل هنا وهناك بكراسي السيدان والحمّالات، يرتبطون بعقارب ساعاتهم بشكل يدفعك للاعتقاد بأنّ مخالفة المواعيد أمرٌ محرّم! يحتاجون أشخاصاً يذكّرونهم بميعاد استحمامهم أو سباحتهم أو حتّى ميعاد تناولهم للطعام.. إنهم ضعفاءٌ مخدّرون بسبب عقولهم المنغمسة في الترف، لدرجة أنهم فقدوا قدرتهم على الإدراك فيما إذا كانوا جائعين أم لا. أعرف أحد أولئك المنغمسين في الملذات -إن كان تعبيرٌ منغمس في الملذات هو التوصيف الصحيح للأشخاص المفتقرين للعادات البشرية الطبيعية- عندما أنهى استحمامه وتمّ حملُه إلى عربته النقالة قال متسائلاً: «هل أنا جالسٌ الآن؟» أتظنُّ أن ذلك الرجل الذي لا يعرف ما إذا كان جالساً يمكن أن يدرك مغزى حياته أو وضوح نظره أو حقيقة رفايته؟ ثمّة ما يدفعني لأن أشفق عليه في حالة كان حقاً لا يدرك، أو كان يتظاهرُ بذلك حتّى. هم في الحقيقة عرضةٌ لنسيان الكثير من الأشياء، غير أنّهم يتظاهرون بنسيان أشياء أكثر حتّى. يتباهون بالردائل وكأنها دليلٌ على ابتسام القدر لهم، يبدو أنّ تلك الشخصيات الوضيعة تجيّد عملها بالفعل! وبعد هذا، أستدين التمثيل الإيمائي بإتيانه العديد من التفاصيل في سبيل مهاجمة هذا الترف الجائر؟! في الحقيقة، لقد تجاهل تفاصيل أكثر مما طرحها، فمثل

هذه الكمية العظيمة من الرذائل قد ظهرت في عصرنا هذا، ما يعكس براعتهم وإبداعاتهم التي تحطت حدود المنطق في ترَفهم ذلك، والتي من خلالها يمكننا إدانة التمثيل الإيمائي لتجاهله إياها. وبالتفكير في أن شخصًا قد انجرفَ في تيار الرفاهية حتى عاز شخصًا آخر ليُعلمه ما إذا كان جالسًا أم لا! إنه ليس مرفهاً على الإطلاق؛ بل إنَّ أصدق ما يمكنك وصفه به هو أنه شخصٌ مريض، أو حتى ميّت. الشخصُ المرفّه يعي رفايته بالفعل، فكيف لشخصٍ نصف حيٍّ وغير مدركٍ بوضعية جسده الخاص؛ أن يكون سيدًا لوقته؟

سيكون من المُضجر أن أسردَ الأنواعَ المختلفة من الرجال الذين كرسوا حياتهم تائمين في نشاطٍ رياضيٍّ ما، أو قابعينَ تحت أشعة الشمس بغية تسمير بشرتهم. أولئك الذين تترافقُ رفايتهم بالتزام حقيقي ليسوا في موضع راحة. على سبيل المثال، لن يتردّد أحدٌ باعتبار أن تلك الفئة التي تصبُّ اهتمامها في جدالات أدبية لا طائلَ منها؛ هم فارغون ويضيِّعون وقتهم ليس إلا.. باتت أعدادهم كبيرة بين الرومان الآن. رغم أن تلك كانت سمة الإغريق آنذاك، فمنهم من كان يسعى لمعرفة عددِ المجدِّفين لدى أوليس⁽¹⁾، أو ما إذا كانتِ الإلياذة⁽²⁾ سبقت الأوديسة أم لا، أو حتى إن كانت الملحمتان تعودان لذات الروائي أم لا، وأسئلة أخرى من هذا النوع، والتي لن تضيف شيئًا من المعرفة بالنسبة إليك، أو حتى ثقافة لمن حولك. لكنَّ هذا النوع من الشغف الفارغ قد وصل إلى الرومان أيضًا. فمؤخرًا، سمعت شخصًا يشارك أخبارَ الجنرالات

(1) هو ملكُ إيثاكا الأسطوري، ترك بلده كي يكون من قادة حرب طروادة، وصاحب فكرة الحصان الذي بواسطته انهزم الطرواديون.

(2) ملحمةٌ شعرية تحكي قصة حرب طروادة، وتعتبر مع الأوديسة أهمَّ ملحمة شعرية إغريقية.

الرومانيين وإنجازاتهم الفردية؛ فالجنرال دوليوس كان أول من انتصر
بمعركة بحرية، وكوريوس ديتاتوس كان أول من استغل ميزة الفيلة
لتحقيق الانتصار في المعركة. مع ذلك، فإن هذه الحقائق وحتى ولو
لم تضيف شيئاً إلى الصالح العام إلا إنها تعكس قوة الدولة بطريقة أو
بأخرى.. لا يوجد منفعة مباشرة من هذا النوع من المعرفة، لكنها تحظى
باهتمامنا نظراً لجاذبية الأفكار المطروحة. قد نعذر -أيضاً- أولئك الذين
يتساءلون عمّن كان أول من حثّ الرومان على الصعود على متن سفينة.
لقد كان كلوديوس من دفعهم للقيام بذلك، ومن هنا تمت تسميته
بكوديكس؛ لأن كوديكس كانت التسمية التي تعارف عليها القدماء
وأطلقوها على الهيكل الذي تمّ تشكيله باستعمال الألواح الخشبية. ومن
هنا -أيضاً- جاءت تسمية الجداول القانونية كوديسس «المخطوطات»،
وإلى يومنا هذا مازالت القوارب التي تنقل المؤن عبر نهر التاير تدعى
كوديكاري. ومما لا شك فيه أيضاً أن فاليريوس كورفينوس هو أول من
قام بغزو ميساننا، ما جعله أول فرد من عائلة الفاليري يُلقب بميساننا،
بعد أن نسب اسم المدينة المحتلة لنفسه، وتمّ تحريف الاسم تدريجياً إلى
ميسالا. وربما تثير اهتمامك حقيقة أن لوسيوس سولا⁽¹⁾ كان أول من
قدّم أسوداً طليقة في المدرج الروماني، رغم أنها كانت تظهر مقيدة من
حين لآخر.. وأنّ الملك باخوس أرسل قاذفات الأرماع لقتلهم.. وأنّ
بومبيوس كان أول من وضع رجالاً أبرياء في مواجهة ثمانية عشر فيلاً
ضمن معركة ضارية؛ قد يكون اهتمامك معذوراً هنا أيضاً، ولكن ما

(1) لوسيوس كورنيليوس سولا: قائدٌ وقنصلٌ وديكتاتور روماني. شخصية عظيمة في
عهد الجمهورية الرومانية. يسمّى أيضاً سولا فيليكس إيماناً منه بحظه الذي لم يفارقه.
وواجه ماريوس غايوس في حرب أهلية رهيبه. عرف بقسوته على المعارضين السياسيين
والعسكريين مما أكسبه سمعة سيئة.

الفائدة المرجوة من مثل هذه المعلومات؟ ذلك ورغم أن الأخير عُرف بلطفه بين الزعماء القدامى، إلا أنه اعتقد بأن قتل البشر بطريقة جديدة وأساليب متنوعة سيشكل حدثاً استثنائياً. «هل سيقاتلون حتى الموت؟ هذا لا يفي بالغرض. هل سيمزقون إلى أشلاء؟ هذا ليس كافياً. لندعهم يُسحقون تحت أقدام تلك الحيوانات الضخمة». كل تلك القصص والحكايا حريٌّ بها أن تُنسى خشيةً أن يتعلمها لاحقاً رجلٌ بموضع سلطةٍ ونفوذ، وتتابه مشاعرُ الغيرة من تلك الأفعال الوحشية ويسعى لتقليدها. يا لذلك الظلام الذي حلَّ علينا بسبب الرفاهية! اعتقد أن جبروته قد تخطى قوانين الطبيعة، فكان يرمي العديد من البشر البائسين لينتزعوا حياتهم من بين أنياب وحوش ضارية غريبة، أو يضعهم في معركةٍ مميتة بين بعضهم البعض، وكان يسفك الكثير من الدماء أمام أعين الرومانيين حتى وصل به الأمر إلى سفك دمائهم أيضاً. ولكن هذا الرجل نفسه تعرض لخيانة الإسكندرانيين، وأودى بنفسه ليصبح عرضةً لطعنة خنجرٍ من عبدٍ وضيع، وحينها أدرك أن لقبه (العظيم) الذي نسبه لنفسه كان تفاخراً فارغاً ليس إلا. مكتبة سُر من قرأ

وبالعودة إلى ما بدأتُ به، وتأكيداً على أن ثمة الكثيرين ممن يضيعون جهوداً عديمة الفائدة في مثل هذه المواضيع، أفاد الرجل الذي أسلفتُ ذكره أن ميتالوس وبعد دخره للقرطاجيين في صقلية كان الوحيد من بين كل الرومان الذي قام بأسر مائة وعشرين فيلاً واقتادهم أمام العربة التي كانت تحمله، وأن سولا كان آخر الرجال الرومان الذين وسَّعوا البوميريوم⁽¹⁾، والذي كان تقليداً قديماً بعد الاستحواذ على أراضٍ إيطالية لا أراضٍ إقليمية. أعتقد أن تلك المعلومات أشد أهمية من معرفة أن تلَّ

(1) الحدود الدينية للمدينة.

أفتنين - حسبها أكد الرجل - لا ينتمي إلى حدود البوميريوم لسبب من اثنين: إما لأنَّ العامة قد زحفوا إليها، أو لأنَّ الطيور لم تأتِ بفأل خير حين تولَّى ريموس رعاية المنطقة، ونظريات أخرى مُشابهة لما تمَّ ذكره مليئة بالمغالطات والتضليل؟ على الرغم من ثقتك بصدق نواياهم عندما يقصون عليك هذه القصص، ورجمَ تأكيدهم على صحة هذه المعلومات، مَنْ ستُقلل أخطاؤه؟ من ستُكبح عواطفه؟ مَنْ سيغدو أكثرَ حريةً وعدلاً وشهامةً؟ اعتادَ فايبانوس⁽¹⁾ القولَ إنَّ الشك كان يساوره فيما إذا كان من الأفضل عدمُ الاجتهاد في مثل هذا النوع من الدراسات بدلاً من التورط بها.

من بين سائر البشر، المرفّهون وحدهم مَنْ يخصّصون وقتاً للفلسفة، وحدهم من يعيشون حياتهم حقاً؛ لأنهم لم يُنصبوا أنفسهم أوصياء على زمانهم فقط، بل يضيفون له زمناً آخر. جميعُ السنوات التي مرّت على تاريخ البشرية حتّى قبل أن يولدوا هي خبراتٌ تُضاف إلى خزيتهم. وما لم تكنْ جاحدين، علينا الاعترافُ بأنَّ هؤلاء الرجال همُ صانعو المجد الحقيقيين بأفكارهم المقدسة، لقد ولدوا لأجلنا، رسموا لنا مساراً للحياة. كانت ركيزتهم أعمال الآخرين التي تقودنا إلى رؤية الأشياء الأكثر جمالاً، والتي استحضرت من ظلام التاريخ إلى نور الحاضر. لسنا مُستبعدين من أيّ عصر أو زمن، نمتلك إمكانية الوصول إليها جميعاً؛ وإن شاءت رغبتنا بتعظيم العقل أن تسمو بنا مُتجاوزين الحدود الضيقة للعجز البشري، فهناك حقبةٌ زمنية تنتظرنا كي نبخرَ بها. يمكننا محاوره سقراط، والإعراب عن شكوكنا مع كارناديس⁽²⁾، وأن نجد السلام مع

(1) باپيروس فايبانوس: كان فيلسوفاً من روما القديمة.

(2) فيلسوف ليبي قورينائي: كان يعتقد بعدم وجود معيار مطلق للحقيقة. وتقبّل المبدأ القائل بأنَّ أيّ عمل هو صحيح إذا كان بالإمكان الدفاع عنه بالمنطق.

إبيقور⁽¹⁾، يمكننا التغلب على الطبيعة البشرية مع الرواقين⁽²⁾ أو نتجاوز حدودها مع التَّشاؤمين⁽³⁾. وبما أنَّ الطبيعة تسمح لنا بمواكبة كلِّ زمن، فلم لا نغير من هذه الفترة الزمنية الفارغة العابرة، ونهبُ أنفسنا إلى الماضي الأزلي الذي لا حدودَ له، لتشاركه مع رجالٍ أفضل منا؟

هؤلاء الذين يندفعون إلى الواجبات الاجتماعية، فيزعجون أنفسهم والآخرين أيضًا، عندما ينتهون من جولاتهم الجنونية ويمرّون بشكل يومي على الأشخاص الذين يروّضهم عادةً من دون أن يعبروا أبوابهم المغلقة، عندما يحملون معهم التَّهاني ويلقونها على تلك المنازل المتفرقة، سيكون من الصعب ملاحظتهم في المدن الكبيرة والمشتتة بالرغبات المتنوعة. كم سيبقى منهم إذا ما استبعدوا بسبب نوم وانغماسٍ بالملذات أو بُخل شخصٍ آخر؟ وكم من الأشخاص سيقوهم في مُعانة الانتظار ويتظاهرون بعدها بأنهم على عَجلة ويسرعون بالهرب؟ وكم منهم سيَتحاشون المرورَ عبرَ الأروقة الممتلئة بالاعتماديين ويهرعون هارين عبرَ أقرب مخرج، كأنه لا تكفي فظاظة استبعاد المتصلين بل يحدوهم أيضًا؟ وكم من شخصٍ غلبه النومُ بعد أن أفرطته ثمالة اليوم السابق وأصبح كسولًا يَتشاءب بوقاحة، ويتحدّث همسًا ويتفكر ألفَ مرّة قبل ترحيبه بالبائسين الذين قاطعوا سباته فينتظر السبات القادم؟

(1) فيلسوف يوناني قديم، عاش في الفترة بين عامي (270-341 ق.م.)، أسس مدرسة فلسفية سميت باسمه هي المدرسة (الإبيقورية).

(2) تدرج الرواقية تحتَ فلسفة الأخلاقيات الشخصية التي تُستمدُّ من نظامها المنطقي وتأملاتها على الطبيعة.

(3) مذهبٌ فلسفي أسَّسه الفيلسوف أنتيستينيس في القرن الرابع ق.م.، وهو أحد أتباع الفيلسوف اليوناني سقراط.

عليك اعتباراً أولئك الأشخاص المنغمسين في تلك الواجبات المقدسة في ذات المرتبة مع زينون⁽¹⁾ وفيثاغورس والديموقراطيين، وكل كبير من الكهنة في مجال دراسات الحكمة وأرسطو وثيوفراتوس. لا أحد منهم سيكون مشغولاً لدرجة ألا يستطيع مقابلتك، ولا أحد منهم سيخرج الزائر من عنده دون أن يكون راضٍ وأكثر سعادةً وتفانٍ تجاه نفسه، أو يسمح لأي أحد بالرحيل خالي الوفاض.. إنهم موجودون لخدمة البشر ليلاً نهاراً.

لا أحد منهم سيدفعك لإنهاء حياتك، بل سيعلمونك كيف تعيشها. ولا أحد منهم سيستنزف سنواتك ولكنه سيشاركك خاصته. فلا المحادثات ستكون مؤذية، ولا الصداقات فتاكاً، ولا التواجد مكلفٌ مع مثل هؤلاء الأشخاص؛ لأنك ستأخذ من خبراتهم أيّاً كان ما تتمناه، لن يكون ذنبهم إن لم تأخذ كفايتك منهم. يا لها من سعادة! ويا لها من أيام تنتظر ذاك الشخص الذي وهب نفسه إليهم! سيحظى بأصدقاء يستطيع أن يطلب مشورتهم في أشدّ الأمور أهمية أو أكثر تفاهة، يستطيع مشاورتهم يومياً بخصوص نفسه، وسيخبرونه الحقيقة من دون تجريح، وسيشجّعونه من دون تملُّق، سيصقلون شخصيّة ثلاثه مدى الحياة.

نحن مُعتادون على قول إنه لم يكن في وسع أحدنا اختيار والديه الذين خلق من صلبهم، واختارهم القدر لنا بالصدفة، ولكن، يمكننا تحديد ماهية الأبناء الذين سنكون عليهم. ثمة منازلٌ تعجُّ بأنبل العقول؛ فلتختر إحداها لتبتناك، وستجد أنك لن تثرث اسمهم فقط؛ بل حتّى

(1) فيلسوف هلنستي: من مواليد مستوطنة كيتيوم الفينيقية في قبرص، هاجر إلى أثينا في شبابه، ومع أنه رفض أن يصبح من رعاياها إلا أنه بقي مقيماً فيها حتى وفاته، وبعد دراسته على يد كريتيس الساخر وستيلبو الميجاري وفي الأكاديمية القديمة، أخذ يعلم في الرواق المعمد، ومن هنا كانت تسمية مذهب الفيلسفي بالرواقية.

ممتلكاتهم.. تلك الممتلكات ليست بحاجة لأن يتم حراستها؛ فكلما تمت مشاركتها عظم شأنها. سيمنحونك طريقاً للخلود ويرفعونك إلى مكانٍ لن يستطيع أحدٌ إنزالك منه بعد ذلك. هذه هي الطريقة الوحيدة لإطالة مدة فنائك، أو حتى تحويلها إلى خلود. التكريات والصروح التذكارية، أيًا كانت الطموحات التي تريدها، والمراسيم التي ترتبها وتبرزها في المباني العمومية سوف تُدمر عما قريب. لا شيء يدوم عبر الزمان إلا ليهترئ وتمحوه السنون. ولكن رياح الوقت العاتية لن تطل ما كرسته الفلسفة عبر القرون.. لا زمن ولا عصر يقوى على طمسها أو هدم ما بنته؛ بل إن كل عصرٍ تالٍ لهم سيزيد من وقارهم ليس إلا، خاصة وأن مشاعر الحسد لدينا لا تلهث إلا للأمور الفورية، فيمكننا إبداء إعجابنا بالأمور من مسافة بعيدة؛ لهذا فإن حياة الفيلسوف تمتد باتساع، فلا أغلال تقيده كما الآخرين، ولا حدود تحجزه كسائر البشر؛ بل هو وحده حرٌّ من جميع القوانين التي تقيد البشرية، وتتوالى الحقبات على خدمته كما لو كان إلهًا: وقتٌ قد مرَّ يفهمه ويحزّنه في ذاكرته، وقتٌ حاضر يستغلُّه، وقتٌ آتٍ يترقبه.. هذا المزيج بين الأوقات كلها إلى وقتٍ واحد تجعل حياته طويلة.

إن الحياة مُقلقة جدًا، وقصيرة بالنسبة إلى أولئك الذين ينسون الماضي، يهملون الحاضر، ويخافون المستقبل. وعندما تحكم قيود الموت قبضتها سيدرك أولئك الفقراء البائسون أنهم كانوا مُنهمكين باللا شيء. وحقبة أنهم يتذرعون بالموت لا تثبت أن حياتهم كانت طويلة؛ بل إن جهلهم قد ألقى عليهم بمشاعر مضطربة ما جعلهم يرمون بأنفسهم أمام أكثر الأشياء التي يخشونها. إنهم يتوقون - أحيانًا - إلى الموت لأنهم يخشونه. ولا هو دليل - أيضًا - على عيشهم الطويل لدرجة أن الأيام تبدو لهم طويلة، أو أنهم يشكون من مرور ساعات النهار ببطء حتى يحين وقت العشاء. وحالما تحذهم مشاغلهم في الحياة يعودون إلى عدم

الراحة والفراغ، ولا يعلمون كيف يتخلَّصون منه ويجعلون الوقت يمر. يحرصون على إيجاد شيء ما يفعلونه، لا يقوون على تحمُّل ذلك الوقت المستقطع؛ إنه حقًّا أشبه بوقت عرض للمُصارعة قد تمَّ الإعلانُ عنه، أو كأنَّهم يتطلعون إلى وقت تسليَّةٍ محدد أو استعراضٍ ما.

يريدون القفزَ فوق تلك الأيامِ بشتَّى الطرق. وأيُّ تأخيرٍ في الأحداث المنتظرة يولِّدُ ضجرًا بالنسبة إليهم. ومع ذلك، فإنَّ وقتَ البهجة الحقيقية يكون قصيرًا وسريعًا، ويصبح أقصرَ بكثيرٍ بفعل خطيئتهم؛ لأنَّهم يندفعون من تسليَّةٍ إلى أخرى ولا يستطيعون الثباتَ عند رغبة واحدة. إنَّ أيامهم ليست طويلة ولكنها شنيعة. وفي المقابل، يا لقصرَ ليااليهم عندما يقضونها بالسكر والنوم مع العاهرات! لذلك فإن جنونَ الشُّعراء الذي يشجع ضعفَ الإنسان بقصصهم عن متعة الآلهة بممارسة الجنس هي التي تزيد من طول ليااليهم. وما الذي يمكنه أن يأججَ الرذائل فينا أكثر من استخدامهم لأقوال الآلهة حتَّى توافقهم، وحتَّى يقدِّموا سوابق على خطيئتنا ويبرِّروها؛ نجبروننا بفسوق الآلهة؟ هل يمكن لليالي التي يدفعون ثمنها باهظًا ألا تبدو قصيرة جدًا لهؤلاء الناس؟ إنهم يضيعون النهارَ بانتظار الليل، ويضيعون الليلَ وهم خائفون من بزوغ الفجر.

حتَّى إنَّ رفاهيتهم ليست بالهيئَة، ومصحوبةٌ بآلاف المخاوف، وفي أقصى درجات السعادة لديهم تأتي هذه المخاوف لتسرقها منهم: «إلى متى سيدوم هذا؟». إنَّ هذا الشعورَ جعل ملوكًا تنحبُّ على جبروتها، لم يكونوا سعداء جدًا بسخاء حظِّهم بقدر ما هم كانوا خائفين من فكرة نهايتها الحتمية. عندما كان ملكُ الفرس⁽¹⁾ المتغترس ينشر جيشه في السهول الواسعة، لم يتمكن من إحصاء عددهم، ولكن كان عليه أن

(1) خشايارشا الأول.

يقيسه تقديرًا، قد بكى لأنه خلال مائة عام لن تبقى روحٌ واحدة على قيد الحياة من هذا الجيش العظيم. لكن هذا الرجل الباكي كان هو الوحيد الذي سيقودهم إلى قدرهم، وسيدمر بعضهم على الأرض، وآخرين في البحر، بعضهم في المعارك، وغيرهم أثناء تحليقهم، وخلال مدة قصيرة لن يكون لديه أحدٌ من هؤلاء الذين بقيَ لمئات السنين خائفًا عليهم.

وماذا عن حقيقة أنه حتى متعهم غير مستقرة؟ السببُ أنّها لم تقم على أسباب راسخة، ولكنها مضطربة بقدر الاتهامات التي تحوم حولها. ولكن ما هي طبيعة هذه الأوقات - باعترافك - حين يعترف أولئك أنفسهم بأنها بائسة؟ لأنّه حتى متعهم التي تبجلهم وتسمو بهم فوق العرق البشري هي فاسدة بذاتها. كلُّ الهبات العظيمة تأتي بالقلق، وما عليك أن تكون أكثر ثقة بالقدر حين يكون عادلاً. لكي نحافظ على الرفاهية علينا أن نجدَ رفاهية أخرى، ولكي ندعم الأمنيات التي تحققت علينا أن ندعو من جديد. أيّا كان ما سيأتي في طريقنا بمحض الصدفة فهو غير راسخ، وكلما ارتفع أكثر كنْ على يقين بأنه سيسقطُ إلى الهاوية. وفي النهاية، فإن كلَّ ما هو محكومٌ عليه بالسقوط لن يبهج أحدًا. لهذا فإن الحياة مُحتم عليها ألا تكون قصيرةً فحسب؛ بل بائسة جدًا لأولئك الذين ظفروا بأشياء حتمت عليهم معاناة أكبر بُغية الحفاظ عليها، يحققون منهاهم بشقّ الأنفس، يتملّكون ما حققوه بقلق، وفي هذه الأثناء لا يُعيرون انتباهًا إلى الوقت المهدور بلا عودة. تأتي مشاغلُ جديدةٌ لتحلّ محلّ القديمة، والأملُ يلد أملًا جديدًا، والطموحات تحفّز طموحاتٍ أخرى.

إنّهم لا يبحثون عن نهاية لبؤسهم، بل ببساطة يغيرون من مُسبباته. لقد أوجدنا معاناةً لأخلاقنا العامة، وأمضيها وقتًا أكثر على أخلاق غيرنا. توقّفنا عن العملِ كمرشّحين، وبدأنا بحشد الأصوات لغيرنا، تخلّينا عن

مصاعب النائب العام، واعتلينا كرسيَّ القاضي. الرجلُ منا يتوقف عن كونه قاضيً ويصبح رئيسًا للمحكمة. أمضى حياته في تنظيم مُمتلكات الآخرين مقابلَ راتبٍ ما، وأضحى يقضي ما بقيَ له في الاهتمام بممتلكاته الخاصة. ماريوس⁽¹⁾ تمَّ تسريحه من الجيش لينشغلَ بعد ذلك بكونه قنصلًا. كويتيوس يسارع لإنهاء خدمته في منصبِ الديكتاتور، ولكن سيتمُّ استدعاؤه إليها مجددًا. سكيبيو⁽²⁾ سيتحرك لمواجهة القرطاجيين قبل اكتسابه الخبرة اللازمة لمثل هذا الأمر. انتصرَ على حنبعل⁽³⁾، انتصرَ على أنطيوخس⁽⁴⁾، تميز ضمنَ قنصليته ودعمَ خاصَّة أخيه، ولكن قد قُدِّس كما الآلهة لو أنه بذاته لم يرفض هذا الأمر، لكنَّ النزاعَ في الدولة يُنهك مُخلصها، وبينما كان في عُنفوان شبابه، وبعدَ احتقاره لمراسم تكريمه التي تشابه تبجيلَ الآلهة؛ سيكبرُ ويعيش في منفاه العتيد متفاخرًا.. سيكون هناك سببٌ للقلق دائمًا سواء كان في وقتِ الرخاء أو البؤس. ستقودك الحياة عبرَ سلسلة من المشاغل المتعاقبة؛ عليك أن تكون مستعدًا دائمًا للوقوع في الفراغ، وحريصًا على ألا تستمتع به.

(1) غايوس ماريوس: قنصل وعسكري روماني (100-107 ق.م). كان هو من شارك ميتيلوس النوميدي حربه كقائد في نوميديا ضدَّ يوغرطة، أخذًا منه الزعامة على الجيش بعد فشله طول مدة الحرب في القضاء على النوميدي.

(2) شيبون الإفريقي: واسمه الكامل بابليوس كورنيليوس سكيبيو الإفريقي، وتُكتب أيضًا سكيبيو الإفريقي أو سكيبيو الكبير أو أفريكانوس الكبير، قنصل وقائد روماني خلال الحرب البونيقية الثانية.

(3) حنبعل بنُ حملقار برقا: الشهير بـ حنا بعل أو هانيبال، أو هاني بعل، قائد عسكري قرطاجي ينتمي إلى عائلة برقا البونيقية العريقة، ويُنسب إليه اختراع العديد من التكتيكات الحربية في المعارك ما زالت معتمدة حتى اليوم.

(4) أنطيوخس الثالث الأعظم: ملكٌ يوناني هلنستي، والحاكم السادس للإمبراطورية السلوقية. حكم منطقة سوريا وأجزاء كبيرة من بقية غرب آسيا في نهاية القرن الثالث قبل الميلاد.

إذا عزيزي باولينوس، اخرج مبتعدًا عن الزحام، وكلما عصفت بك
 الحياة وألقت بك على ما يفوق طاقتك؛ عليك في النهاية التقاعدُ والعودة
 إلى ميناء آمن. وتذكر كم موجةً واجهتَ، وكم عاصفةً بعضها أبقيتَ
 عليها لنفسك والبعض الآخر أخرجته للعلن. لقد كانت فضيلتك مرئيةً
 للجميع لفترة كافية؛ إذ كنت مثالًا للمثابرة والنشاط. حاول فعل ذلك
 أثناء راحتك. إن الجانب الأعظم من حياتك هو بالتأكيد الجانب الأفضل
 الذي كرسته لصالح بلادك. خذ بعضًا من الوقت لنفسك أيضًا. أنا لا
 أحثك على الخمول أو الكسل غير المُجدي، أو إلى استهلاك كل نشاطك
 في النوم والملذات التي يحبها الجميع، فليس هذا جوهر الراحة. عندما
 تتقاعد وتنعم براحة البال سوف تجد ما تشغل به نفسك من أنشطة أكثر
 أهمية من تلك التي مارستها بكل طاقتك حتى اليوم. بالطبع أنت تقوم
 بإدارة حسابات العامة بدقة كبيرة كما لو كانت تخصك، وبضمير حي كما
 لو كانت تخص بلادك. أنت جناح المودة في وظيفة يصعب فيها تجنب
 المشاعر السلبية، ولكن صدقني بأن فهم صفات وطبيعة المرء أفضل من
 فهم ميزانيته. عليك أن تستحضر عقلك النشيط ذاك، القادر بكل قوة
 على التعامل مع أعتى المسؤوليات والمهام المشرفة بالتأكيد، ولكنها بالكاد
 تتماشى مع الحياة السعيدة. وعليك إدراك أن كل ما تدربت عليه في شبابك
 من دراسات ليبرالية ليست موجهة للتعامل مع هذه النهاية؛ لأن آلاف
 التخصصات في المجتمع قد يُعهد بها بكل ثقة لك. لقد عاهدت نفسك
 بما هو أسمى وأعظم شأنًا لنفسك. ولطالما ستجد في هذه الأرض رجالًا
 يستحقون النجاح ويعملون بكدح لتحقيقه. فالحيوانات ذات الظهور
 الصلبة التي يمكنها حمل الأثقال مُلائمة للعمل أكثر من الخيل الأصيلة؛
 أسبق ودنس أحدهم سرعتهم العظيمة بعبء ثقيل؟ وتذكر -أيضًا-
 كم من القلق ستجلب لنفسك عندما تحمل على عاتقك هذا الكم من

المسئولية.. أنت تتعامل مع نفسٍ بشرية في نهاية المطاف. إن الناس الجياع لا يستمعونَ إلى منطق، ولا يقبلون بالحلول العادلة، أو حتى يميلون إلى أيِّ مُناشدة، مؤخرًا بعدَ وفاة يوليوس قيصر بأيام قليلة - وهو مازال حزينًا (هذا إذا ما كان للموتى القدرة على الشعور) - لأنه رأى شعبَ روما مازال يكافح للعيش على مؤن الطعام لما يقارب السبعة أو الثمانية أيام، بينما كان هو يبني الجسورَ والسفن ويلهو بمواردِ المملكة وخزيرتها؛ لقد واجهنا حينها أسوأ الشدائد والمحن، حتى بالنسبة إلى مَنْ هُم تحت الحصار مع نقص المؤن. تقمّمصه لدور الملك الغريب المجنون أهلكه مع كبريائه، وقد كلفَ المدينة تقريبًا دمارًا كبيرًا ومجاعةً مُهلكة، وانهارًا شاملاً تبعَ تلك المجاعة. ما الذي شعر به هؤلاء الذين كُلّفوا بتأمين المؤن للجميع بينما كانوا تحتَ تهديد السلاح، والحجارة، والنار، وطغيان يوليوس؟

تمكّنوا مع تجمهر وإضرابٍ عظيم من دَسّ الشَّر المتربّص بحياة بلادهم، بالتأكيد كان لديهم أسبابٌ وجيهة. من المؤكّد أنّه من الأفضل علاجُ المريض من علته بينما هو غيرُ واعٍ بها؛ فمعرفةُ المريض بعلته في بعض الأحيان قد يكون سببًا في موته.

عليك العودةُ إلى تلك المساعي التي تكون أهدأ وأكثرَ أمانًا وأهمية. هل تعتقد أن مراقبةَ نقل صوامع الحبوب من دون أن تتلوّث بكذبِ الراعي وإهماله، وأخذ الحيطّة لأنّ لا تتعرّض للرطوبة وتتلف من الحرارة بعد ذلك، وتكون مطابقة للقياسات والوزن المطلوب؛ مشابهةً لإبحارك في هذه الدراسات السامية والمقدسة التي سترشدك إلى ماهية الإله، ومشيتته، وأسلوبه، وشكله، والقدر الذي ينتظر روحك في المكان الذي تدعنا فيه الطبيعةُ لنرقد بسلامٍ مجردين من أجسادنا؟ وما هي القوةُ التي تدعم كلَّ العناصر الثقيلة في لبِّ هذا العالم، تحمل النار إلى أعلى

مكان، وتحرك النجوم بما يتناسب مع تغيراتها، وتتعلم أشياء أخرى عن الوراثة والسُّلالات السابقة المليئة بالمُعجزات العظيمة والعجائب؟ عليك حقًا أن تغادر هذه الأرض وتهبَ أفكارك وتوجَّهها إلى هذه الدراسات، بينما لا تزال تشعرُ بحرارة الدَّماء في عروقك، عليك أن تمضي في طريقك إلى ما هو أفضل. ففي هذه الحياة ستجدُ الكثير مما يستحقُّ الدراسة: الحب والفضيلة والمساحة والعاطفة والانفعالات، ومعرفة كيفية الحياة والموت، والطريق إلى حياةٍ عنوائها السكينة. في الحقيقة، إنَّ حالَ كلِّ هؤلاء الأشخاص المنهمكين بآثمة، ولكنَّ الأشدُّ بؤسًا منهم هم أولئك الذين يجاهدون في مشاغلٍ ليست لهم أساسًا وإنَّما عليهم ربطُ نومهم بغيرهم، يمشون على خطى غيرهم، ويطيعون الأوامر في أكثر الأشياء حريةً؛ في الحب والكراهية. وإذا ما أرادوا - هؤلاء الأشخاص - أن يعرفوا كم أن حياتهم قصيرة دَعهم يتأملون مدى صِغر أدوارهم.

لذا، عندما ترى أحدهم مرتديًا لباسَ المكتب على الدوام، أو مَنْ يتكرر ذكرُ اسمه في الندوات؛ لا تحسده: هذه المكاسبُ قد حقَّقوها بعد أن دفعوا حياتهم ثمنًا لها. سيضيِّعون سنواتٍ عمرهم في سبيل أن تسجَّل إحدى السنوات بأسمائهم. إن الحياة قد تركت البعض يعانون في بداية حياتهم المهنية قبل أن يخوضوا في طريقهم إلى ذروة طموحاتهم. بعض الأشخاص بعد أن شقوا طريقهم زحفًا عبر آلاف المذلات حتَّى وصلوا إلى الكرامة العظمى؛ قد تعرَّضوا لهجوم الأفكار السوداوية والبائسة بأنَّ كلَّ عملهم لن يكون سوى رثاء يُكتب على شواهد قبورهم. والبعض يحاولون التصالح - مع كبر سنهم - بآمالٍ جديدة وكأنتهم مازالوا يافعين، لكن ضعفهم يخذلهم في منتصفِ جهدهم الذي تكلفوا عليه، إنه لمشهدٌ مُخزٍ جدًا أن ترى رجلًا طاعنًا في السنَّ لا يستطيع التقاط أنفاسه بينما هو يتوسَّل في المحكمة لشخص غريب عنه تمامًا ليقبلَ التقاضي لصالحه،

ويحاول أن ينال استحسانَ مَنْ يتجاهلونه. وإنه لأمرٌ مُشين أن تشهد عينُك شخصًا انهار في منتصف واجباته بعد أن أثقله أسلوبُ حياته لا مصاعبُ عمله. وإنه لمن المهين أكثر أيضًا أن ترى رجلًا يموت في وسط حساباته وأمواله بينما يقف ورثته الذي انتظر طويلًا وهو مبتسمٌ بارتياح. لا يمكنني منع نفسي من إخبارك بما يخطرُ في بالي.. سكتوس تورانوس كان رجلًا كبيرًا في السن، معروفًا بصرامته، وأنه دؤوب في عمله، تقاعد في التسعين من عمره من مكتبه لدى يوليوس قيصر بناءً على طلبٍ منه. وبعد ذلك جهّز نفسه ليوضع في سريره ويرثي من قبل مجموعة من كبار الخدم في المنزل محاكيًا مشهدَ موته. المنزلُ رثى سيده الكبير بعد الفراغ الذي تركه ولم يتوقّف عن النواح عليه حتى عادت إليه وظيفته السابقة. هل من المرضي حقًا أن تموت وأنت تحت سُخرة الآخرين؟ هذا إحساسُ الكثير من البشر، رغبتهم في عملهم تطيل من قدرتهم على تولّيه، إنهم يكافحون ضعفهم الجسدي، ويرون شيخوختهم على أنها داءٌ ستهمّش دورهم ليس إلا. القانونُ لا يجعل أيّ شخص يعمل كجندي بعد سنّ الخمسين، أو كجنرال بعد السّتين من عمره: الرجالُ يجدون صعوبة في أخذ وقت فراغ من أنفسهم بدلًا من أن يفرضه عليهم القانون. في هذه الأثناء -بينما هم يسرقون وتتم سرقتهم، ويزعجون ويقلقون راحة بعضهم ويجعلون بعضهم بائسين- تمضي حياتهم من دون أن يتدوّقوا الرضا أو السعادة، أو التطور العقلي. لا أحد يضع الموت في الاعتبار، أو يتتعد عن الآمال التي تبدو بعيدة المنال، حتى إن البعض يربّون أمورًا لما بعد حياتهم مثل: المقابر المبهرجة، والإهداءات في المباني العامة، وتنظيم الاستعراضات في جنازاتهم، والتباهي بالمدافن. لكن في الحقيقة جنازاتُ مثل هؤلاء الناس يجب أن تُقام على المشاعل والشموع المحمولة، كما لو أنهم عاشوا أقصرَ الحيات.

مواساة لهيفيلا

مكتبة

t.me/soramnqraa

أمي العزيزة، كثيرًا ما راودتني رغبةٌ مواساتك ولكنني غالبًا ما أكبَّها. تراكمت واجتمعت الأشياء في حثي على ذلك. فأولها وأوضحها، تراءى لي استجماع قوتي وتهميش مشاكل لحظةٍ مسحي لدموعك عن وجنتيك المحمرتين، رغم عجزني في منع تساقطها في المقام الأول. ويليهما إيباني بأن النهوض بنفسي أولًا سيمكِّنني من النهوض بك تاليًا. وعلاوةً على ذلك، قيَّد الخوفُ أضلعي فيما لو أني لم أحكم قبضتي وأخضع الوجه المشرق للقدر كما حلمت به، فسيلتهم جانبه السوداوي شرارةً الروح لشخصٍ عزيزٍ عليّ، فانتفضتُ عازمًا على رسم طريقي بكلِّ ما أوتيت من قوَّة وإصرارٍ للزحف نحو مُنْاي، واضعًا نصبَ عينيَّ أن أكون قطرة الندى التي ستطفئ وطأة نار جروحك.

وهناك أيضًا اعتباراتٌ أخرى كانت قد أخرجت تحصيلَ هدفي؛ حيث إنني أدركتُ أنه لا يجب مواساة حدادك وهو في ذروة تأججه، حينذاك ستكون المواساة بحدِّ ذاتها مؤلمة. الأمرُ سيَّان بالنسبة إلى المرض حتى؛ فلا شيء مؤذٍ أكثر من العلاج قبل أوانه. لذلك كنتُ أنتظر، أنتظر حتى تنطفئ نارُ حزنك، وتختفَ يومًا بعد يومٍ منتظرةً الشفاء لاحتضانها، وتفتح أبوابها أمام ضيفِ يواسي مآسيها. وأيضًا، على الرَّغم من إبحاري في جميع الأعمال التي كتبها أشهرُ المؤلفين حول السيطرة على الحزن وتخفيفه، لم أتمكن من العثورِ على شخصٍ ممن نجحوا في مواساة أحبائهم حين كانوا بذاتهم أساسَ ذلك الحزن. فما كان مني إلا أن ترددت في مثل هذا الموقف

العصيب، خوفاً من تأجيج الحزن بدلاً من تخفيفه. وخُذي بعين الاعتبار أن الرجل الذي يرفع رأسه من محرقة الجنازة بحد ذاتها سيحتاج إلى أكثر من تلك المفردات المُقتبسة من التعازي العادية لمواساة أحبائه، ولكن حين يكون الحزن هائلاً فسيعجز عن التعبير وانتقاء المفردات، حيث إنه يسلب الصوت من حنجرة النواحين. على كل حال، سأبذل قصارى جهدي، ليس لأنني أتق بذكائي؛ بل لأنني أجد نفسي المواسي الوحيد، فبالتالي سأقدم لك أعظم سبل المواساة الممكنة. ولأنك لم ترفضيني قط، وعلى الرغم من أن كل الأحزان عنيدة، أرجو ألا ترفضيني هذه المرة لأكون مستعداً لأضع حداً لآلامك.

فكّري في مقدار التسهلات التي منحني إياها، وكم كانت داعمةً بالنسبة إلي.

لا شك لديّ في أنني سأكون ذا تأثير عليك أكثر من تأثيري على حزنك، رغم أن تأثير الحزن على مالكه لا يضاهيه شيء آخر. ولذلك، في سبيل تجنب خوض معركة ضارية دفعةً واحدة سيقتصر دوري في بادئ الأمر على المساعدة وتقديم التشجيع بكل جوارحي، وسأكشف وأعيد فتح جميع تلك الجروح المدفونة والتي سُفيت بالفعل. أحدهم سيعارض ويعلق: «أي نوع من المواساة هذا؟ إعادة العلل المدفونة وتثقل العقل بكافة أحزانه حين إنه لم يقوَ على تحمّل واحدة منها؟» ولكن دعيه يعي فكرة أن تلك الاضطرابات الخطيرة والتي ترسبت في أعماق النفس بناءً على سبل العلاج المتلوية آنذاك يمكن معاملتها بطرق عكسية لتفكيكها. لذلك سأجعل العقل يُجابه جميع مآسيه وملابس حداده المهترئة؛ ليست بطريقة رقيقة للعلاج، بل معركة ضارية يخوضها العقل في سبيل الشفاء. ما الذي سأحققه من هذا؟ سأحرص على أن الروح التي عانت مراراً من

المآسي وتغلبت عليها، ينبغي أن تحجل من الخضوع لجرح صغير أصابها في جسد ملأته الندبات بالفعل. فدعي أولئك البشر يغرِقون في البكاء والعيول، أولئك الذين أفسدتهم عقولهم المنغمسة في الرّفاهيات والسلام المُبتذل الدائم، دعهم ينهارون أمام أسخف الأضرار، وافسحي المجال للذين عانوا طوال حياتهم من الكوارث والمصائب للتعامل بشجاعة وحزم مع هذه الآلام. البلاء الدائم لديه نعمةٌ واحدة، وهي أنها تعزز قوة أولئك الذين أخذتهم موطنًا لكوارثها.

لم يكن الحظُّ حليفك أبدًا، لا بل إنه أمطرَ عليك بمآسٍ عديدة منذ ولادتك. في الوقت حين تَمَّت ولادتك، لا، أثناء خروجك من جوف أمك، كنت قد فقدتها بالفعل، ولدتُ على أعتاب حياةٍ مخرّبة مسبقًا. ترعرتِ على يد زوجة أب، ولكنك أجبرتها على أن تصبحَ أمًا حقيقيةً، فقد أظهرتِ احترامًا وتفانيًا لم تنعم به أمٌّ من ابنتها قط! ولكنَّ فقدانَ الطفل لأمه له تكلفَةٌ باهظةٌ مهما كانتِ البدائل جيّدة. فقدتُ عمَّك، ألطفَ وأشجعَ الرجال الذين عرفتهم، في الوقت الذي كنتِ تنتظرين قدومه، ومع ذلك أبى البلاءُ أن يخفّف وتيرةَ بلائه، وأتى بعد ستة أشهر فقط وجعلك تدفينين زوجك العزيز والدَ أطفالك الثلاث. تلقيتِ ذاك الخبر عندما كنتِ في جِدادك بالفعل، وبالطبع كانَ أطفالك بعيدين، كما لو أنّ البلاء كان يقصد ألا يجدَ حزنتُك مخرجًا أو ملاذًا يستأنس ألمه فيه. إني أتجاهلُ جميعَ مصائبك، كلُّ ما تحملته من مخاطر واضبتُ على مهاجمتك. ولكن في الآونة الأخيرة، وفي نفس الحوضن الذي جلس عليه ثلاثة من أحفادك، أتت عظامهم لتودع ذاك الحوضن للمرة الأخيرة. وبعد عشرين يومًا من وفاة ابني، الذي مات مرتيمًا بين ذراعيك وأنتِ تقبلينه سمعتِ أنني خُطفت، ولم يكن ينقصُك إلا أن تحزني على الأحياء حقًا!

من بين جميع المآسي التي أصابتك والجروح التي اخترقت جسدك،
أعترف أن هذه كانت الأكثر ضراوة؛ فهي لم تقطع جلدك فقط، لا بل
إنها شقت صدرك وأعضاءك الحيويّة. ولكن تمامًا كما يُقاسى المجنّدون
الجدد، حتّى عندما يصابون بجروح سطحية، فإنّ صراخهم يزلزل
المكان، ولا يعلم الأطباء كيفية التعامل معهم، بل حتّى يخشونهم أكثر من
السيوف. في حين أنّ المحاربين القدامى حتّى لو بُترت أطرافهم أو شُقت
أجوافهم، فإنّهم يتناغمون مع الأمر بصبرٍ ومن دون أنين، ويسمحون
بتنظيف جراحهم كما لو كانت أجسادهم لا تنتمي إليهم أساسًا؛ فيجب
عليك أن تهبي نفسك للعلاج بكلّ شجاعة. تعالي وأطلقني ما لديك من
نحيب ورناءٍ سببه لك ذلك الحزن العميق. ولا تنسي أن كلّ البلاء الذي
أصابك سيكون محض دُعاية إن لم يشعركَ بالآلام حقيقية. هل أبدو أنني
تصرّفت بخشونة معك؟ لم أبعد عنك مصيبةً أو اثنتين، لا.. بل كدّستها
جميعها أمام ناظريك.

فعلتُ هذا بشجاعة لأنني أريد التعلّب على حزنك وليس خداعه.
سأمضي بما بدّأته، أولاً وقبل كلّ شيء، إذا أظهرتُ لك أنني لا أقاسي
شيئًا، ولست ممّن يوصّفون بأنهم بائسون، دعيني أودي بنفسي إلى
صفوفهم، وإذا أظهرت أن مصيرك -والذي يستند بشكلٍ أساسي على
مصيري- ليس مؤلماً أبدًا.

عليّ أن أخبرك بالحقيقة التي يتوق قلبك إلى سماعها؛ وهي أنني لا
أعاني من أيّ ضيق. عليّ أن أوضح -إن استطعت- أنّ تلك الظروف
التي من شأنها أن تسحقني يمكن تحمّلها، ولكن في حال عدم تصديقك
لذلك فسأكون فخورًا بنفسني لكوني متينًا رغم تلك الظروف التي عادةً
ما تجعل الرجال يسقطون إلى الهاوية.

لا حاجة لتصديقك الناس فيما يقولونه عني: أقول لك وبكل حزم إنني لست بائسًا، فما من داع لوقوعك في مآهات الشك! ولطمأنتك أكثر؛ أضيف أنه لا مجال لأن أكون بائسًا حتى.

خُلقنا في ظل ظروف آيلة للاستمرار إذا لم نمضِ قدمًا ونتركها خلفنا. وكانت الطبيعة قد أظهرت منذ نشأتها أنه لا حاجة لهبات عظيمة من أجل ضمان حياة سعيدة، فكل إنسان بسيط قادرٌ على جعل السعادة من نصيبه. والمتع الحياتية ليست إلا شيء تافه لا يضيف قيمةً في كلا الحالتين: فالرّخاء لا يُشيد الحكيم، والشّدائد لا تُحبطه. إذ لطلما بذل جهده للاعتماد على نفسه فقط واستخلاص السّعادة والبهجة من داخله. ولكن ماذا في ذلك؟ هل أدعو نفسي بالحكيم؟ قطعًا لا؛ لأنّه إن أمكنني دعوة نفسي كذلك، فلن أنكر أنني خضتُ حياة البؤساء فحسب، بل سأؤكد أنني تربّعت على قائمة أكثر الرجال حظًا، وتقرّبت من مستوى إلهي. وكما هو الحال، في سبيل تخفيف الآلام، سلّمت نفسي للحكماء، ولكن بما أنني لست قويًا بما يكفي لأساعد نفسي بعد، وجّهت ناظري إلى مجموعة أخرى، أقصد تلك المجموعة القادرة على مساعدة نفسها وأتباعها أيضًا. طلبوا مني أن أكون ذا موقفٍ حازم، كما الحارس على أهبة الاستعداد، وعليّ أيضًا التنبؤ بكل الهجمات المحتملة من قبل القدر قبل وقتٍ طويل من مجيئها. فتلك الهجمات غالبًا ما تكون قاسيةً على أولئك غير المدركين لقدومها، بينما هو الحال مختلف لأولئك الذي يتوقّعونها. كما الأمر عندما يصل العدو فإنّه يشتم أولئك الذين يمسك بهم على حين غرة، بينما من كان مستعدًا ومجهّزًا للصراع القادم، فإنهم يتلقون الهجوم الأول بسهولة، وهو الأكثر عنفًا.

لم أثق يوماً بالحظ، حتّى عندما ابتسم لي. رغم كلّ تلك النعم التي وهبني إياها بلطف، من المال والمناصب والنفوذ؛ نفيتها إلى مكان حيث يمكنه استعادتها من دون إزعاجي. رفضتُ تقرُّبٍ منها، وأبقيتُ على مسافة بيني وبينها، فلم يستطع سلبها واقتلاعها مني كما اعتاد مع سائر البشر، وما كان بيده حيلة إلا أن أخذها بعيداً بسلام. لن ينكسر رجلٌ من خذلان الحظ إلا في حال تصديقه لنعمه في المقام الأول. أولئك الذين اعتادوا أن يكون الحظُّ فارسهم المنشود، ويمطر عليهم بحسناته، والذين استنبطوا حماستهم من ورائه سيحلُّ عليهم حزنٌ شديد عندما تتلاشى تلك الملذاتُ الزائفة والعبارة، وستجفُّ عقولهم التي نست طعمَ المتاع الحقيقي. ولكنَّ الرجل الذي بقي حاله غير مغرور في الأوقات الخصبه، لن تشوبه شائبة في الشدائد أيضاً؛ فقد تمَّ اختبارُ ثباته ورباطة جأشه بالفعل، ووقار روحه أضحى لا تُقهر في شتى الظروف، استمدَّ وعزز قوته في خضمِّ الرخاء استعداداً لمُجابهة الشدائد بكامل قوته؛ لذلك لم أو من أبداً بوجود أيِّ خيرٍ حقيقي في الأشياء التي يصلِّي عامّة البشر لأجلها، لا بل وجدتها فارغةً مطليةً بألوان مُبهرجة وخادعة، كيانات مجوّفة الصميم لا يقرب جوهرها أبداً ليناسب ما هي عليه من الخارج. والآن في هذه الشرور - كما أطلقوا عليها - لا أجد شيئاً فظيماً أو قاسياً يتملّكه الظلام والسوداوية كما زعم من حولنا وزرعوا فينا تلك الأفكار من المؤكّد الآن أن كلمة «منفي» تطرق الآذان بضراوة متسلقة على نوع من أنواع الاعتقادات والتقاليد الشعبية، فتسقط على المسامع كأنها شيءٌ كئيب وبارد. هذه هي توجهاتُ عامّة الشعب بهذا الشأن، ولكن بطبيعة الحال غالباً ما يعترض الحكماء منهم على هذه الترهات.

لذلك لنضع جانباً آراء تلك الأغلبية التي تستمدُّ حكمها من منظور سطحي وخارجي للأشياء، مهما كانت أسباب الإيمان بها. ودعينا نوضّح

حقيقة المنفى تلك.. إنها حتمًا تجسّد التغييرَ في المكان، لا يمكنني سلبُ تأثيرها السلبي ومساوئها العديدة مهما تكلمتُ، لذلك أوافقُ على أن هذا التغييرَ في المكان يجلب معه بلاءَ الفقر والعار والازدراء. سأتناول هذه المواضيعَ في وقت لاحق، في الوقت الراهن أسعى لتوضيح تبعيات التغيير في المكان والضيق المنطوي عليه.

«لا يمكن تحمّل أن تُحرَم من بلدك».. انظري إلى أولئك الذين تكاد مباني روما العظيمة تقوى على استيعابهم، معظمهم محرومون من بلادهم أيضًا. توافدوا معًا من بلادهم ومواطنهم، جاء بعضهم مُقتادين بطموحهم، وآخرون بسبب التزاماتٍ معيّنة. أتى بعضهم كمبعوث، وآخرون ليرضوا ذاتهم بحثًا عن أماكن مليئة بالرذائل، بعضهم جاء لدراسة سلوكيات الحكمة، آخرون بسبب العروض العامّة، أتى بعضهم بفعل الصداقة، بعضهم اختارَ تلك البقعة لتغذية أرواحهم حيث وجدوا مكانًا ملائمًا لإطلاق عنانهم، جاء البعض لبيع جاهلهم، فئة أخرى قادتها بلاغتها إلى هناك. بالطبع سارعتُ شتى أنواع الشخصيات إلى المدينة التي تجدُ فيها الفضائل والرذائل من امتيازاتها نصيبًا. أسألي كلًّا منهم من أين أتى: ستجدين أنّ معظمهم قد غادروا منازلهم ومدنهم وأتوا إلى مدينة عظيمة وجميلة للغاية، ولكنها ليست مدينتهم. وبعد انتهائك من هذه البقعة التي تعتبر موطنًا ومنزلًا للجميع إلى حدّ ما، ابحثي في مدني مجاورة وستجدين أن نسبة كبيرة من سكانها هم مهاجرون أيضًا. بتجاهل المناطق الجميلة والمريحة التي تجتذب أعدادًا كبيرة، وبالنظر إلى تلك المدن المعزولة والجزر القاحلة، مثل: سكياثوس⁽¹⁾ وسيريفوس⁽²⁾ وكوسيرا

(1) سكياثوس: هي جزيرة صغيرة في بحر إيجه تابعة إلى اليونان.

(2) هي جزيرة يونانية في بحر إيجه، تنتمي إلى أرخبيل سيكلاديز.

وغياراً؛ لن تجدي مكاناً للمنفى، لن يبقى شخصٌ هناك بمحض إرادته. ما الذي يمكن أن تجديه أكثر شحاً من مواردها؟ أو أكثر وحشية من شعبها؟ أكثر فساداً من بيئتها؟ أو أكثر قسوة من مناخها؟ ما الذي يمكن أن تجديه في هذا المكان القاحل كالصخر؟ ومع ذلك أعداد المهاجرين فيها أكثر من السكان الأصليين. وهكذا، إنَّ التغييرَ في المكان بحد ذاته هو الأمر الصعب لا المكان المقصود، فحتّى هذا المكان القاسي قد جذب العديدَ من البشر من مواطنهم الأصلية. صادفت العديدَ من الأشخاص الذين قالوا لي إنَّ ثمة نوعاً من الاضطراب الفطري في بنية البشر والرغبة في تغيير مسكن المرء، وذلك لأن الإنسان لديه عقلٌ غير مستقرٍّ يسعى للتغيير. ليس هنالك مكان للراحة الدائمة بالنسبة إليه، فينطلق بأفكاره قاصداً الأماكن المعروفة وغير المعروفة، وهو هائم لا يقوى على تحمل الهدوء وسعادته تكمنُ في التغيير والتحديث. لن يفاجئك الأمرُ إذا فكَّرتِ في منبعه الأصلي. لم يُصنَع من مادة أرضية ثقيلة وملموسة، بل انبثقَ من تلك الروح السماوية؛ الأشياء السماوية بطبيعتها تتحرك وتتغير دائماً، تهربُ وتسير بسرعة هائلة. انظري إلى تلك الكواكب التي تضيء عالمنا: لن يسعدَ أحدُهم بالراحة والثبات الدائم. تنزلق الشمسُ باستمرار، تتحرك من مكانٍ لآخر، وعلى الرغم من أنها تدورُ مع الكون إلا إنَّ حركتها معاكسة لحركة السماء نفسها؛ تتسابق مع البروج والالاهية، دائمة الحركة كما مغامراتها بين الأماكن. الكواكب بجميعها أزلية الحركة والمرور، كما فرض عليها قانون الطبيعة المقيّد، فإنها تنتقلُ من نقطة إلى نقطة أخرى. وما إنَّ ينتهوا من دوراتهم ويكملوها في أوقات محدّدة من السنة، ليعودوا ويبدووا تلك الدوائر من جديد بلا كلل. إذًا، كم هو سخيفٌ أن تتخيلي العقلَ البشري الذي هو الآخر يمتلك عناصر

مثل الكيانات الإلهية، يعترض على الحركة والتغيير، بينما تجدين الطبيعة الإلهية بحد ذاتها في تغيير مستمر وسريع.

والآن حوِّلي انتباهك من الأمور السماوية إلى الكيانات البشرية، سترين أن أممًا وشعوبًا بأكملها قد أخذت التغيير كطبيعة لها. فماذا تفعل المدن اليونانية وسط الأراضي البربرية؟ لماذا نسمع اللغة المقدونية من أفواه الهنود والفرس؟ تكشف سيكيثيا⁽¹⁾ وكل تلك المناطق الشاسعة بقباثلها الشرسة والجامحة عن مدنٍ آخائية تأسست على شواطئ بونتوس. الشتاء القاسي غير المنتهي والطبيعة الوحشية لسكان تلك المنطقة الأصليين، والذين اكتسبوا خشونتهم بسبب طبيعة مناخها، لم يردعوا البشر من الهجرة إليها. هناك في آسيا يوجد حشدٌ من الآثينيين، وأرسلت مدينة ميليتوس⁽²⁾ ما يكفي من الناس لاستعمار خمسة وسبعين مدينة؛ الساحل الإيطالي بأكمله - والذي تراقص مع أمواج المحيط - كان في يوم من الأيام يونان العظيمة. تدعي الشعوب الآسيوية أن الحضارة الإتروسكانية⁽³⁾ تابعة لها؛ يعيش الصوريون في إفريقيا، ويعيش الفينيقيون في إسبانيا. اجتاح اليونانيون طريقهم وصولاً لليونان، لم تمنع جبال البرانس مرور الألمان، وشقوا طريقًا جائرًا مُغامرين بحيواتهم وصولاً لهدفهم، فتبعتهم عائلاتهم المنكوبة منذ سنوات. وبعضهم - وبسبب تجوالهم الطويل - لم

(1) سكيثيا أو سكيثيا أو سقيثيا: هي منطقة تاريخية تعود للعصر الكلاسيكي القديم، وكانت تشمل آسيا الوسطى وبضعة أجزاء من أوروبا الشرقية شرق نهر فيستولا.

(2) مدينة قديمة في آسيا الصغرى، على الشاطئ الجنوبي من الخليج اللاتمي قرب مصب نهر ماياندر.

(3) كانت الحضارة الإتروسكانية في إيطاليا القديمة، تقريبًا في المنطقة القائم فيها الآن توسكانا وغرب أومبريا وشمال لاتسيو، وأجزاء شمالية في وادي بو التي هي الآن إميليا رومانيا وجنوب شرق لومبارديا وجنوب فينتو، وجنوبًا في بعض مناطق كامبانيا الحالية.

يتمكّنوا من اختيار وجهتهم كما يبتغون، بل أودت بهم مصاعبُ الترحال إلى الاستقرار في أقرب مكان، وآخرون استحوذوا على أراضٍ أجنبيّة بقوة السلاح. والبعضُ غرق أثناء بحثه عن مناطق غير معروفة، واستقرّ آخرون حيث انقطعت بهم السبلُ بعد نفاذ الإمدادات. لم يتشارك الجميع بذات الأسباب للتخلي عن وطنٍ من أجل آخر، فمنهم من هرب من أراضيهم بعدما دمرها العدو. تمّ نقلهم إلى مناطق أخرى بعد فقدهم لأراضيهم، ومنهم من تمّ نفيهم بسبب الحروب الأهلية، أرسل آخرون بغرض تخفيف أعباء الكثافة السكانية، وفرّ آخرون من الزلازل والأمراض ومن يأسهم بسبب سُخِّ أراضيهم الزراعية، ومنهم من غادر طمعًا بالعثور على شواطئ وأماكن خصبة.

أسبابٌ عديدة حرّضت شعوبًا مختلفة على مغادرة منازلهم، لكن هذا على الأقلّ واضح، لم يبقَ شيءٌ على حاله مثلما ولد. الجنس البشري دائمٌ التغيير والحركة. في هذا العالم الكبير جدًّا، هناك شيءٌ يتغير كلَّ يوم على أقلّ تقدير؛ تأسيس مدن جديدة، أسماء أمم تطرق الأذان من دون سابق إنذار تولّد عندما تختفي حضاراتٌ قبلها، أو تندمج مع أخرى أقوى. ولكن، أيمن تعريفُ تلك الهجرات الجماعية غير أنّها عقابٌ للأشخاص؟ لم عليّ أن أسحبك داخل تلك الدائرة المظلمة؟ لم أتكبّد عناء ذكر أنتينور الذي أسّس بادوا، وإيفاندر الذي استقرّ في المملكة الأركادية على ضفاف نهر التير؟ ماذا عن دايوميدس⁽¹⁾ والآخرين، الغزاة منهم والمنكوبين، الذين تشبّثوا على أراضٍ غريبة بسبب حرب طرّوادة؟

(1) دايوميدس بن تيدوس: هو أحد الشخصيات اليونانية القديمة في العصر المسمّى بعصر الأبطال الميثولوجيا الإغريقية. اشتهر بدوره البطولي في حصار طروادة بالرغم من صغر سنه بالنسبة إلى باقي الأبطال، فهو أكثر من خاض مشاهد قتالية في الإلياذة أكثر حتى من أهم شخصية في الإلياذة.

لماذا الإمبراطورية الرومانية بعد ذاتها تنظر إلى شخصٍ منفيٍّ على أنه مؤسِّسها، وهو في الحقيقة طُرِدَ من وطنه بعدَ حروبٍ أدت إلى اغتصابه، فأخذ بعضُ الناجين معه، وأجبره الخوفُ من العدوِّ على الهروب والقدوم إلى إيطاليا؟. وكم من المستعمرات الرومية أُرسِلت إلى المقاطعات! أينما تطأ أقدام الروم يستوطنون. الناسُ هم أيضًا تطوَّعوا في هذا النوع من الهجرة، حتَّى كبار السن الذين تركوا كنائسهم قد تبعوا المستوطنين أينما ذهبوا. لا أعتقد أنَّ هذه الفكرة بحاجةٍ إلى توضيح أكثر، ولكن سأضيف شيئًا أخيرًا سيعصف أفكارك: هذه الجزيرة أيضًا قد غيَّرت سكانها في وقتٍ ما. لنضع الأحداث التاريخية التي حجبها العصور القديمة جانبًا، الإغريقيون الذين يعيشون في ميليسا الآن، بعد مُغادرتهم لفوكيس استوطنوا في هذه الجزيرة أيضًا. لم يكن سببُ مغادرتهم مشاعرهم الخالصة أو الطبيعة القاسية للمناخ وعدم وجود موانئ في المنطقة، أو حتَّى كونهم في مرأى القوَّة الجبارة لإيطاليا. من الواضح أنَّ السبب غير مرتبط بوحشيَّة السكان آنذاك؛ لأنَّهم عاشوا بين ما كان يُعرف بأشرس الشعوب وأخرى أكثرها تحضُّرًا في المقاطعة الرومانية حاليًا. بعد ذلك عبر الليوغوريون إلى الجزيرة، وتبعهم الإسبان، كما هو واضحٌ من تشابه عاداتهم: فالكورسيكيون يرتدون نفس النوع من أغطية الرأس والأحذية مثل الكانتابريين، وبعض كلماتهم هي نفسها -بعضها فقط-، كما أنَّ لغتهم قد فقدت بعض عناصرها الأصلية نتيجة تحلُّطهم للإغريق والليغوريين. ثمَّ تمَّ إحضارُ مستعمرتين من المواطنين الرومان إلى هناك؛ واحدةٌ من قبل ماريوس، والأخرى من قبل سولا. عاصرت هذه المنطقة القاحلة الكثير من تغيُّر السكان! باختصار، لن تجدي بلدًا واحدًا يسكنه مواطنوه الأصليون؛ كلُّ مكانٍ يحتوي على مجموعةٍ متنوعة من السكان أتت أو تمَّ إحضارها من مناطق مختلفة. مجموعة تبعتُ أخرى،

واحدة تتوق إلى ما احتقرته ثانية. وطردت إحداها من حيث طردت أخريات؛ لذلك قرّر القدرُ ألا شيء يحافظ على حاله إلى الأبد.

يرى فارو - وهو أحد أكثر الرومانيين علماء - أن لدينا الحلّ للتعويض عن التغيير الفعلي للمكان ونسيان المضايقات الأخرى المرتبطة بفكرة المنفي، فأينما ذهبنا سنخضع لحكم الطبيعة ذاته. ويشاركه ماركوس بروتوس الرأي، حيث يطرح فكرةً حولّ رسوخ الفضائل في النفس البشرية أينما ترحّلت. حتّى لو ظن الناس أن هذه الأفكار لو أخذت بشكل فردي لن تُحدث فرقًا واضحًا، لكن في حال تراكمها واجتماعها معًا، فسيكون لها ثقلٌ وأهمية لا يمكن التغاضي عنها. وكم أن خسارة «المنفي» صغيرة لا يُستحقُّ ذكرها، وتغرق في سموّ الصفتين اللتين تصاحبان النفس البشرية في رحلاتها وتجوالاتها، صفتان تبقيان راسختين تُضيفهما الحياة حين ولادتنا؛ التعايش مع الطبيعة وتكدُّس الفضائل. صدقيني إن قلْتُ لك إن هذه هي المشيئة، أيّا كان من أنشأ هذا الكون العظيم، سواء إله جبار أو شيء غير مادّي أدّى إلى دوران العجلة الغريبة هذه، أو حتّى روحًا إلهية مصاحبة لكلّ كيان، صغيرًا كان أو كبيرًا، أو القدر أو تسلسل السببية، هذه كانت المشيئة. من بين جميع مُمتلكات وصفات البشر، فقط عديمة الأهمية منها هي من تخضع لسيطرة الآخرين، بينما تبقى الصفات السامية والنبيلة للبشر خارج سيطرتهم؛ فلا يمكن سلبها أو منحها. العالم الذي ترينه أعظم خلق الطبيعة وأكثرها شموخًا. والعقل البشري التائه في روائع هذا العالم وهو بحدّ ذاته أكثرهم تميزًا، هذه هي مُمتلكاتنا الأبدية، وستبقى معنا ما حيينا. لذلك، أقفُ وشجاعة تسري في عروقي، وأقول: هيّا، لنسارع خطواتنا إلى حيث تأخذنا الظروف، لنسافر عبر البلدان مهما كانت وجهتنا، فلا مكانَ للمنفي في عالم لا يجوي شيئًا غريبًا بالنسبة للعرق البشري. من أيّ نقطة على سطح الأرض، إن نظرتِ للأعلى نحو جنّات

النعيم فالمسافة هي ذاتها التي تفصل عرش الآلهة عن البشر. وعلى ذلك، فقد أتاحت هذه المسافة لعينيَّ ألا يشيخا بنظرهما عن ذلك المشهد البديع، الذي لم يسأم منه قط، فتحت الباب لي لأن أنظرُ إلى الشمس والقمر، لأن أحدق بالكواكب الأخرى، وأن أفتني ظهورهم واختفاءهم، ميعادهم وحالات تسارعهم أو تباطؤهم إبان ارتحالمهم في الفضاء؛ مكنتني من أن أتمعن بالنجوم اللامعة المتثورة على السماء المخضوضبة بظلام الليل (بعضهم ثابت، وبعضهم يأبى أن يسافر إلى مسافات بعيدة، عوضا عن ذلك يدورون في نفس المنطقة؛ بعضهم ينطلقون قدما على حين غرة، وآخرون يبهرون العينَ بنيران مُتناثرة كما لو أنهم يسقطون، أو ينزلقون بعيدا، تاركين وراءهم أثرا طويلا من الأضواء المتوهجة. هيأت لي أن أتواصل مع هذه النجوم، بالدرجة التي يمكن للإنسان أن يتواصل بها مع غير البشر، وأرتبط مع الكيانات العليا، ويسرت لي أن أبقي تفكيري موجها دائما نحو الأعلى، متعطشا لرؤية أشياء من نفس الطبيعة، فما المهم إن وقفت على هذه الأرض أو تلك؟

«ولكن هذا البلد ليس غنيا بالمساحات الخصبة أو الأشجار المثمرة؛ لا يوجد فيه أنهارٌ كبيرة صالحة للملاحة تتفرع بقنواتها لتسقي أراضيها، ما من شيء ينتجُه تريده الدول الأخرى، فهو بالكاد يمتلك من الخصوبة شيئا يكفي لإطعام مواطنيه فقط. فلا مكانَ رخام قيِّمة ليُنقَب فيها، ولا عروق من الذهب والفضة قد تُستخرج. تافه هو العقل الذي يسرُّ بالأمور الدنيوية، يجب أن يُقتاد بعيدا إلى تلك الأشياء التي تظهر في كلِّ مكان بالتساوي، تظهر متابطة ذات الدرّجة من البريق. جانب أن الأمور الدنيوية تقف في طريق المتاع الحقيقية عبر اعتقادات خاطئة حول المتع الكاذبة، فهناك هذه الفكرة -أيضا- لتوضع في عين الاعتبار. كلما أسهب البشر في إطالة أعمدتهم الخاصة ضاعفوا علو أبراجهم، كلما أوسعوا

عرض مماشيههم زادوا عمق مغاراتهم الصيفيّة، كلّما رفعوا سقوف قاعات طعامهم، سيقى هناك المديد من السماء ليحجبه. لقد ألقى بكِ القدر في أرضٍ أكثر ملجأً فارِه فيها هو كوخ. بالفعل فأنتِ تمتلكين روحًا هشة، تواسي نفسها بكلّ تواضع، إن تحمّلتِ هذا بشجاعة بسبب درايتكِ عن كوخ رومولوس، فقولي «إنّ هذا الكوخ المتواضع يأوي، حسب مناقب الأفكار على ما أعتقد. قريبًا عندما تعود العدالةُ إليه سيكون أجمل من أيّ معبدٍ مُزخرف أُبدع في صنعه، والزهد والحكمة والتقوى نظامٌ للتقسيم الصّحيح لجميع الواجبات، ومعرفة الخالق والبشر. لا مكان ضيّق بإمكانه أن يسع هذا التجمّع من مثل هذه الفضائل الجليلة، لا منفي شاقّ عندما يكون بإمكانك أن تحظى بمثل هذه الصحبة».

في أطروحته «عن الفضائل» يقول بروتوس إنّه رأى مارسيلوس داخل المنفى في ميتيليني يعيشُ بسعادة بالقدر الذي كانت الطبيعة البشريّة تأذن به، وكان متحمّسًا لدراسات الحكمة أكثر من أيّ وقت مضى. وثمّ أضاف أنّه عندما كان على وشك أن يعود من دون مارسيلوس بدًا له أنّه هو نفسه كان ذاهبًا إلى المنفى عوضًا عن الخروج منه.

كم كان مارسيلوس محظوظًا في ذلك الوقت حين حازَ عطف بروتوس لكونه في المنفى، أكثر بكثير حينما كسب عطف الدولة لقنصليّته! يا لهذا الرجل الذي جعل شخصًا يشعر بأنّه منفيٌّ لأنّه ترك شخصًا منفيًا وراءه! يا لهذا الرجل الذي كسب تقديرَ شخص كان قد فرض احترامه على الجميع، وحتىّ على كاتو الذي كان نسيبًا للملك! يقول بروتوس -أيضًا- إن القيصر غايوس قد أبحرَ متجاوزًا مدينة ميتيليني لأنّه لم يقدر على تحمّل رؤية شخص عظيم غارق في العار. بالفعل، لقد دُعِيَ مجلس الشيوخ نتاج عريضةٍ قدّمها الشعب، لقد كانوا قلقين وحزينين لدرجة

بدوًا فيها في ذلك اليوم قاطبةً يشعرون بمشاعر بروتوس، ويرافعون ليس لمارسيلوس، بل لأنفسهم، في قضية سينفون فيها إن حُرِّموا منه، ولكنه حَقَّق في ذلك اليوم أكثر بكثير، عندما أصبحت مُغادرته بالنسبة إلى بروتوس وزرًا لم يطقه، وأضحت رؤيته في المنفى أمرًا لم يتمكن القيصرُ منه، فكلاهما قد شهدا لصالحه. تملَّك الحزنُ بروتوس واحمرَّ القيصرُ خجلًا لعودة الأخر من دون مارسيلوس. لك أن تتخيَّل أن شخصًا ما بعظمة مارسيلوس غالبًا ما شجَّع نفسه وتحمَّل منفاه برباطة جأش!

«ليس بؤسًا أن تكونَ بلا وطن؛ فقد علَّمت نفسك من خلال دراساتك وأفكارك أن الرجل الحكيم سيجدُ في شتى بقاع الأرض وطنًا يأويه. وأيضًا، ألم ترَ أن الرجل ذاته الذي تسبَّب في نفيك قد غابَ عن وطنه لعشر سنواتٍ متتالية؟ لا شك أن السبب الكامن وراء ذلك هو نيته في توسيع أجمادِ بلاده، ولكنه كان غائبًا في نهاية الأمر. والآن استُدعي إلى إفريقيا التي اجتاحتها المخاطر والحروب، وإسبانيا التي تعيد بناء قواتها وأزالتها بعدما هُزمت شرَّ هزيمة، وإلى مصر بلاد النيل المخادعة. باختصار، سيسارعُ بين بقعة وأخرى في عالم ينتظر الفرصة للانقضاض على الإمبراطورية الجريحة. فأَيُّ مشكلةٍ سيواجهها أولًا؟ إلى أيِّ وجهةٍ سيأخذ خطوته الأولى؟ ربَّما مسارُ انتصاراته سيأخذه في رحلة عبرَ بحار العالم أجمع. فدعه يحتفلُ بانتصاراته بين شعوبه وأمه المتكدِّسة، دعهم يعبدونه، وعش نفسك كما أحبَّها بروتوس».

تحمَّل مارسيلوس عناءَ منفاه، ولم يدع الأمرَ يؤثر على حالته الذهنية، على الرَّغم من أن الفقرَ قد خنقه. وكم يعلم البشرُ الذين لم يجتربوا حالة الجشع والرِّفاهية المطلقة التي تدمرُ كلَّ شيء في النفس البشرية؛ أنه ليس بالأمر الخبيث أن يكون الإنسان تحت رحمة الفقر! وكم أن أهميته معدومة

في دعم الرجل! لا أعلم من سيجد في هذا الشأن نقصاً إن كان يمتلك في نفسه فضيلةً واحدة على الأقل! وبقدر قلقي، أعلم أن خسارتي لم تتجلَّ في الثروة ولكن في التشتُّت ليس إلّا. ما يحتاجه جسدُ المرء أشياء قليلة فقط، من دفءٍ وغذاءٍ وماء، وأيُّ شيء غير هذا فنكون قد خطينا نحو جشع الرذائل لا احتياجاتنا الطبيعية. لسنا بحاجة إلى أن نجوبَ كلَّ المحيطات وأن نثقل أجوافنا بذبائح الحيوانات، أو ننتزع المحارَ من شواطئ البحار المجهولة. لعلَّ الكيانات الإلهية تصبُّ جامَ غضبها على أولئك الذين تجاوز ترفُّهم حدودَ إمبراطورية قد عَشَّش فيها الحسدُ بالفعل. أولئك الذين يتوقون إلى إتراع مطابخهم المكتظة، ويسعون للصيد أينما طابت أنفسهم، لا ينجحون من طلب الطيور من الباروثيين رغمَ عدم انتقامنا منهم بعد. يجمعون كلَّ ما تقع عليه أعينهم في نية ملء نفوسهم الفجعة. أحضروا الطعامَ من أبعاد بقاع الأرض ليلقوها في بطونٍ أضعفها نظامهم الغذائي الغوغائي، وبالكاد تقوى على استيعاب المزيد. يتقيأون ليأكلوا مجددًا، ليعودوا يأكلون حتَّى يتقيأون. موائدهم التي تحملُ بين خباياها قصصًا عن جدران دُمِّرت، وأحياء حرَّقت من أجل تحصيلها، تلك الموائد لا يقدرونها حتَّى. وإذا بشخصٍ يحقر تلك الطباغ وينظر إلى ذاك الترفِ الطائش نظرةً ازدراء، فكيف للفقر أن يؤذيه؟ وإذا ما أراد التبرج وحياء البذخ فسيكون الفقرُ خيرَ دواء له أيضًا، حتَّى لو أبى أن يأخذ الدواء ويخضع ذاته للعلاج، فسيتكفل الوقتُ الذي يمضيه منتظرًا حصوله على المزيد بأن يحقق الرضا الداخلي تجاه ما يملك.

غايوس قيصر -الذي أعتقد أن الطبيعة أنتجتة كمثال على المكر الأسمى في موضع السلطة- أنفق ما يقارب العشرة ملايين سستر على مائدة طعام واحدة، وعلى الرغم من براعة جميع من ساعدوه آنذاك، إلا إنَّه بالكاد وجد طريقةً لإنفاق جزية ثلاثٍ مقاطعات على مائدة عشاء

واحدة! يا لأولئك البؤساء! شهيتهم مرهونة بالطعام باهظِ الثمن! ومع ذلك، ليس مذاقه اللذيذ أو المظاهر الأخاذة للأطباق ما تجعله ثميناً؛ بل ندرته وصعوبة الحصول عليه. ولكن في حال اقتناع أولئك الأشخاص وعودتهم إلى الفطرة السليمة فما الحاجةُ إلى كلِّ ذلك العناء الذي من شأنه أن يخدم البطون لا غير؟

ما الحاجةُ لاستيراد الطعام أو تخريب الغابات أو حتّى نهب المحيطات؟ الطعام منثورٌ في كلِّ أرجاء الأرض كما وزَّعته الطبيعة، لكن كأنَّ شيئاً قد فقأ أعين البشر وجعلهم عمياناً لا يبصرونها، فيجوبون البلدانَ ويعبرون البحار باحثين عن وليمَةٍ تُشبع شهواتهم، بينما يمكنهم إرضاءها بتكاليف بخسة غير متعبة. أود أن أقولَ لهم: «لماذا تشدّون الرحالَ وتطلقون أساطيلكم؟ لماذا تجهزونَ عتادكم وتحضرون للمعارك ضدَّ أيِّ شيءٍ سيواجهكم من وحوشٍ أو رجال؟ لماذا تسرعونَ بطيشٍ نحو كلِّ ما يجلب الذُّعر؟ لماذا تكدسون ثروةً فوق ثروة؟ عليكم النظرُ إلى أحجامكم الحقيقية، والتفكيرُ في مدى صغر أجسادكم حقاً. أليس ضرباً من الجنون أن تسعوا للحظي بأرتالٍ فوقَ أرتالٍ بينما لا يمكنكم سوى الاحتفاظ بقليل؟ وعلى ذلك، على الرّغم من أنكم قد تزيدوا من قوتكم وتحققوا مكاسب مرموقة، وقد توسعوا إمبراطوريتكم وتُهمِنوا على مناطق عدّة؛ إلا إنَّكم غير قادرين على زيادة قوة وقدرة أجسادكم. على الرّغم من أنَّ عملكم سيزدهر وستصبُّ الحروب في مصالحكم، وتُطر عليكم بخيراتٍ ليست من حقكم بالأساس، وستطاردونَ فريستكم وتهاجمون من يعترض طريقكم؛ لكنكم لن تجدوا مكاناً لتخزين تلك الثروات المنهوبة! لماذا تتطلَّعون إلى الكثير من الأشياء؟ من المؤكّد أنَّ أسلافنا لم يكونوا بتلك السعادة، أسلافنا الذين تحوّلت فضائلهم آنذاك إلى دعائم لردائلنا في الوقت الحالي، حصَّلوا طعامهم وقوتهم اليومي

بأيديهم وتعبيهم. ناموا على الأرض العارية، ولم تُزَيَّن مساكنهم بالذهب ولا معابدهم بالأحجار الكريمة، وأدلوها بأقسامهم إلى آلهة مصنوعة من طين، ومع ذلك، جابهوا أعداءهم وفضّلوا مواجهة الموت على أن ينكثوا بيمينهم. من المؤكّد أن دكتاتورنا الذي استمعَ إلى مبعوثي السينمايت بينما كان يطبخ بيده أبسط أنواع الطّعام - (اليد نفسها التي ضربت العدوّ مرارًا وتكرارًا ووضعت إكليلاً من الغار على حُضن معبد كاييتولين جوييتر) - عاش أقلّ سعادة من أبيسيوس في عصرنا، والذي ترك وصمةً عارٍ بسببِ تدرّسه كبروفيسور في فنّ الطبخ ضمن المدينة حيث كان فيها الفلاسفة ذات يوم ينفون بتهمة إفساد عقول الشباب. ما حدث له يستحقُّ أن يُسمَعَ. عندما أنفقَ مائة مليون سسترس في مطبخه، عندما كان يشرب حتّى الثمالة في جميع احتفالات الكاروسيل التي كان يقيمها، كلُّ تلك الهدايا الفاخرة والدخّل الهائل لمعبد الكاييتولين، ثمّ - ولأوّل مرّة - عندما أرغمه وزرّ الديون التي ارتمّت على كاهله أن يتفقّد ما لديه في حساباته المصرفيّة، حسبَ أنّ ما تبقى لديه هو عشرة ملايين سسترس فقط، واعتقدَ أنّه سيتضوّر جوعًا إن عاشَ ما تبقى من حياته بهذا المبلغ فقط؛ لذلك سمّم نفسه. يا لها من رفاهية إن أدت العشر ملايين إلى الفقر! كيف بإمكانك حينها أن تعتقدي بأنّ مقدار النقود هو ما يهم، وليس طريقة تفكيرك؟ شخص خائفٌ يمتلك عشرة ملايين، وآخرون يتعبّدون ويتمنّون شيئًا فرّ الأخيرُ منه بالسّم. ولكن بالفعل بالنسبة لرجل بعقليّة جاحدة كهذه ذلك المشروب الأخير كان أفضل شيء له. حدث الأمر عندما لم تعد ولائمه للملذّات فقط بل للتّباهي أيضًا، عندما أضحى يفتح الستائر كاشفًا عن عيوبه، عندما بدأ يجذب انتباه العامّة لعروضه البذيئة، وصار يحدّث اليافعين ليقلّدوه (الذين كانوا بطبيعتهم سريعي التأثير بغير وجود قدوة سيّئة تعطي العتبة ليحتذوا بها) ثمّ كان

الأمر أن تناول واحتسى السمّ بالفعل. مثل هذا هو قدرٌ أولئك الذين يحتسبون الثروة بغير معيار المنطق، الذين قد حصّروا أنفسهم بحدود ضيقة راسخة داخلهم، ولكن بفعلِ نمطِ الحياة الطالح قد هيمنوا من دون حدودٍ بنزواتٍ لا يمكن ضبطها. لا شيء يملأ فجوة الجشع، ولكن حتى القليل يرضي الطبيعة البشريّة؛ لذلك فإن فقر المنفى لا يحمل معه البلاء.. فلا منفى قاحل يعجز عن أن يُغدق على رجلٍ قوته.

ولكن حسبَ قول شخص ما: «سيفتقد المنفى منزله وثيابه». سيفتقدُهما بقدر ما يحتاجُ إليهما فقط، ولكنه لن يعاني من افتقار لمنزله أو لثيابه؛ فالجسد يحتاج قليلاً من الحماية كما القليل من الطعام. لم تجعل الطبيعة أيّاً من أساسيات حاجة الإنسان صعبةً التحصيل، ولكن حين يصرُّ على أن يكون لديه ملابس أرجوانية فاخرة، منسوجة بخيوط ذهبية ومزينة بأنماط متعددة الألوان؛ فإنه خطأه - وليس خطأ الطبيعة - إن شعر بالفقر. وحتى لو أعدت له كلّ ما خسره فإنها مضيعةٌ للوقت ليس إلا، فحين يعود من المنفى سيشعر بنقصٍ شديد مقارنةً بما ينبغي حقاً أكثر ممّا كان يشعر به من نقصٍ وهو منفيٌّ أيضاً. ولكن حين يجب أن يكون لديه أثاث لامع بأوانٍ ذهبية وطبق فضي عتيق صنعه فنانون مشهورون، أصبح البرونز ذا قيمةٍ لأنّ قلّة فقط من المجانين يريدونه، وحشداً من العبيد يملؤون منزلاً مهماً كان كبيراً، ووحوشاً مثقلةً ببطون متفخخة نتاج تغذية قسرية، ورخاماً من كلّ بقعة من الأرض؛ على الرغم من أنه يكادس كلّ تلك الأشياء، إلا إنها لن تملأ فجوة جشع روحه التي لا تشبع أبداً؛ تماماً كما لا يوجد كميةٌ من سائل ستروي شخصاً لا ينشأ ظمأه من نقص المياه بل من حممٍ داخلية حارقة.. هذا ليس بعطش بل إنّه مرض. ولا يقتصر هذا الأمر على المال أو الطعام؛ نفس الصفة موجودة في أيّ رغبة ليست نابعةً من نقص بل من رذيلة. على أي حال، مهما كنت تكادس من

متاع ورفاهيات فلن تصل إلى ذروة إرضاء جشعك، سترضي جزءاً منه فقط. فالرجل الذي يقيد نفسه بما أبرمته الطبيعة لن يشعر بالفقر أبداً، أما من هاج جشعه ودفعه إلى تخطي تلك الحدود فسيكون الفقر صاحبه الأزلي مهما حصل من مالٍ وثراء. ضروريات الحياة موجودة حتى في المنفى، ولكنها لا تفيض في أكبر الممالك أيضاً. إنه العقل الذي تولد منه ثروتنا، وهذا يذهب معنا إلى المنفى، وفي أقصى الأماكن الصحراوية يجد ما يكفي لتغذية الجسد والاستمتاع بما يملك من متاع. المال بالنسبة إلى العقل كقيمته عند الآلهة، لا يهم. تلك الأشياء التي تقدسها العقول غير المتعلمة والمستعبدة لأجسادها - الرخام والذهب والفضة والموائد المصقولة المستديرة العظيمة - هي أعباء أرضية لا يمكن للروح الطاهرة والواعية لطبيعتها أن تحبها؛ فالروح خفيفة غير مثقلة بكلل، تتطاير عالياً كلما انطلقت من الجسد. وفي هذه الأثناء، وطالما أننا لا نعيقها بأطرافنا وأعبائنا الثقيلة التي تلقنا؛ فستسمو معانقة الآلهة بفكر سريع ومُجَنِّح. فلا يمكن للروح أن تعاني من المنفى بكونها حرّة، وتشابه بطبيعتها الآلهة، ومتساوية في كلّ الأكوان والأزمان؛ لأنّ فكرها يشمل السماء كلها، تسافر عبر كلّ الأزمان.. الماضي والمستقبل. هذا الجسد البائس، أغلال الروح وسجنها، يُرمى هنا وهناك؛ تحتم عليه أن يُعاقب، المرض والنهب يعيثان فساداً بداخله، أمّا الروح فهي ذاتها مقدّسة وأبدية، لا يمكن للتعنف أو المعاناة أن يمسّوها.

في حال كنتِ تعتقدين أنني ببساطة أستخدم تعاليم الفلاسفة لإلقاء الضوء على مِحَن الفقر، والتي لا يشعر أحدٌ بأنّها عبء إلا إذا فكّر بها كذلك، فكّري أولاً أنّ النسبة الأكبر من الرجال فقيرون إلى أبعد الحدود، لكنك لن تريهم أكثر كآبة وقلقاً من الأغنياء. في الواقع، أظنّ أنهم أكثر سعادة حتى؛ لأنّ عقولهم ليس لديها الكثير من أفكار

تعرّضهم للقلق والضغوطات. لنتقل إلى الأغنياء؛ وكم أنّهم يتشابهون مع الفقراء من نواح عدّة! حين يسافرون إلى الخارج، يتمّ تقييد أمتعتهم وحدها، ويضطرونّ إلى التخلّي عن حاشيتهم في حال قرّروا الإسراع في رحليهم. وعندما يخدمون في الجيش، كم القليل من ممتلكاتهم يحفظون بها، ويستمرّ الأمر كذلك مع انضباط المخيمات التي تحجب كلّ سبل الرّفاهية! كما أنّ الظروف الخاصّة للزمان والمكان ليست وحدها التي تضعهم على قدم المساواة مع الفقراء واحتياجاتهم؛ عندما يثقلون في بعض الأحيان من ثرواتهم، يختارون أيامًا معينة يتناولون فيها الطعام على الأرض، ويضعون جانبًا أواني الذهب والفضة، ويستخدمون الأواني الفخارية. يا لهم من مجانين! يطمحون إلى حالة قضوا حياتهم يخشونها! يا لذلك الظلام العقلي! يا له من جهل بالحقيقة يُعمي أولئك الذين على الرّغم من أنّهم يخافون من الفقر إلا إنّهم يستمتعون بتقليده! من ناحيتي، كلّما أنظرُ للوراء متبحّرًا في العصور القديمة، أشعر بالحنين لمحاولتي إيجاد عزاءٍ للفقر؛ لأنّ ترفّ العصور وصل إلى مرحلة حيث فيها حصّة المنفي من الممتلكات أكثر من حصّة ميراث الرجال العظماء سابقًا. جميعنا نعلم أنّ هوميروس⁽¹⁾ كان لديه عبدٌ واحد، وأفلاطون كان لديه ثلاثة، بينما زينون - مؤسس الفلسفة الرواقية التي تتسم بالصرامة والرّجولية - لم يكن لديه أيّ عبيد. فعلى هذا الأساس، أيصنّفهم أحدّ ما أنّهم عاشوا بؤساء من دون أن يظهر البؤس بين كلماته ذاتها؟ مينيوس لاناتوس، الذي أبقى على السلام العام من خلال العمل كوسيط بين الأرستقراطيين والعامّة؛ تمّ دفنه عن طريق تبرّع العامّة. وأتيلوس ريجولوس، بينما كان يقاتل القرطاجيين في إفريقيا كتب إلى مجلس

(1) هوميروس شاعرٌ ملحميٌّ إغريقيٌّ أسطوري، يُعتقد أنه مؤلّف الملحمتين الإغريقيّتين؛ الإلياذة والأوديسة.

الشيوخ ليخبرهم أنَّ عامله قد ذهب وهجرَ مزرعته، فصوّت المجلسُ أنّه -وخلالَ فترة غياب ريجولوس- يجب أن تُدار المزرعةُ من قبل الدولة. ألم يكن الأمرُ يستحقُّ أن يتخلّى عن عبده أو خادمه من أجل هدفٍ أسمى وهو أن يحظى به الشعبُ الروماني؟ تلقت بناتُ شيبون مهرًا من خزينة الدولة لأنَّ والدهنَّ لم يتركْهنَّ شيئًا.. من المؤكّد أنه من الصواب أن يعطي الشعبُ الرومانيّ جزيّة شيبون مرّة واحدة، حيث إنّه لطالما كان يفرّضها على قرطاج. إنني سعيد بأنّ تلك الفتيات قد تبنّاهنَّ الشعبُ الرومانيّ قاطبةً! أعتقدين أن أولئك الذين تزوّجوا المُمثلاث المشهورات بمهرٍ من ملاين السسترس أكثرُ سعادةً من شيبون، الذي كان لأطفاله مجلسُ الشيوخ كوليّ لأمرهم، وتلقّوا أموالاً نحاسيّة صلبة كمهر؟ أيمنُ لشخصٍ بنسبٍ كريم أن يحتقرَ الفقر؟ أيمنُ للمنفّي أن يستاء من افتقاره لأيّ شيء بينما شيبون افتقرَ إلى مهرٍ، وريجولوس إلى عامل مُستأجر، ومينينيوس إلى جنازة؛ تلبيةً لاحتياجاتهم جميعًا كان أمرًا حميدًا لأنهم بحاجتها. ولذا، مع جميع هؤلاء الرجال الذين يتوسّلون إليها، فإنّ الفقر يفوز ليس فقط بالبراءة ولكن بتقديرٍ كبير أيضًا.

سيُجيب أحدهم: «لماذا تتعمّد فصلَ تلك الأمور بيننا لا يمكن أن تأتي إلّا مُجمعة؟ يمكنك تحمّل تغيير المكان في حال اقتصرَ التغييرُ على المكان فقط لا غير. يمكنك تحمّل الفقر إن لم يكن ثمّة عارٌ مرافق له، رغم أنّ الفقر بحدّ ذاته من شأنه أن يسحقَ عزيمة المرء». وردًا على ذلك الشخص الذي يسعى إلى ترهيبني من تراكم العِلل، عليّ القول: «إنّ كانت لديك القوّة للتعامل مع جانب واحدٍ من جوانب البلاء، فأنت قادرٌ على التعامل معها جميعًا. وإن سمحتَ للمبادئ الفضيلة بالدخولِ إلى عقلك وتهذيب روحك، فإنّها ستجعلك حصينًا تجاه أيّ نوع من البلاء، وإن كان الطمعُ الذي يجسد الطاعونَ الجائر للروح البشرية قد

انحنى أمامك، فلا شيء سيقفُ في طريقك أو يشكلُ عقبةً تحجبُ دربك لتحصيلِ ما تبغته. إن كنت لا تنظرُ إلى موتك على أنه عقابٌ بل تسلسل طبيعي من مراحل الحياة كما أبرمتها الطبيعة، فسيغلقُ قلبك أبوابه أمام الخوف ولن يتخلله ثانية. إن نظرتَ إلى الرغبة الجنسية على أنها سبيل للتكاثر واستمرار للعرق البشري وليس للمتاع، بمجرد أن تتخلص من تلك الغرائز المتطرّفة المتجذّرة في كينونيتك، فستعايش مع جميع رغباتك الأخرى. لا يهزم العقل الرذائل كل على حدة، بل يكون نصره ساحقاً عليها جميعاً». أعتقدين أن هنالك رجلاً حكيمًا يمكن أن يتأثر بالعار.. رجلاً حكيمًا يعتمد على نفسه ويعتزُّ بصفاته ويتجاهلُ المعتقدات الشائعة؟ الموتُ المُشين أسوأ من التلوث بالعار، ومع ذلك ذهب سقراط إلى السجنِ شامخَ الرأس، وبنفسه، من ثقة لا تختلف عنها حين واجه سخطَ الطغاة الثلاثين⁽¹⁾، ووجوده طهّر المكان من العار، فالمكان الذي تواجد فيه سقراط أبعدُ ما يكون عن كونه سجنًا. أيمن أن يُنظر إلى ماركوس كاتو على أن العار قد تبعه عندما فشل مرّتين في الاستيلاء على الرئاسة أو القنصلية؟ لا، بل إن العارَ قد أصاب المناصبَ نفسها حين اعتلاها كاتو. لا يمكن أن يُحتقر شخصٌ ما.. ما لم يُحتقر نفسه أولاً. والعقل المدقق والانهزامي غير حصينٍ تجاه الإهانات، ولكن إذا برجل يُجابه أكبر الكوارث ويهزم الشرور التي تطغى على الآخرين، فيضع الأحران جانبًا ويرتديها كسربالٍ مقدسٍ على أكتافه، لأننا نعظم الرجل الذي يظهر بموقف ثابتٍ وصلب حين مواجهة الشدائد. عندما كان

(1) الطغاة الثلاثون: هو اسمٌ أطلق على حكومة أثينا بعد أن استولى الأسبارطيون على المدينة عام 404 ق.م. والرجال الذين حكموا في ذلك الوقت أطلق عليهم باختصار اسمُ «الثلاثون» كما ولقبوا لاحقًا بالطغاة الثلاثين، وقادَ السياسي الأثيني البارز قريطاس مجموعته القوية.

أريستيدس يتمُّ اقتيادُهُ إلى الإعدام في أثينا، كلُّ مَنْ قابله نظر إليه وتأوّه كما لو أنه لم يكن مجرد رجلٍ يخضع للعقاب، بل العدالة نفسها هي التي كانت مُعاقِبَهُ. ومع ذلك، بصقَ رجلٌ واحدٌ في وجهه. كان يمكن للفعل أن يزعجه لأنّه على يقين أن لا أحد سيجرؤُ على الإقدام بمثل هذا الفعل الشنيع سوى شخصٍ تافه، ولكنه لم يأبه للأمر وقامَ بمسح وجهه، وألقى بناظره نحو القاضي وابتسامَةً تعلقوا ملاحظته، وقال: «حذارٍ أن يتشاءب بتلك الطريقة الشنيعة مرّةً أخرى». فهذه كانت طريقته بالردّ على تلك الإهانة. أعلمُ أن بعض الناس يقولون إنّه لا يوجد شيءٌ أحقرُ من الإهانة، لا.. بل يفضلون الموت عليها أيضًا. وسأرد عليهم بأن الإهانة غالبًا لا يمكن أن تلحق بالشخص المنفي. إذا سقط شخصٌ ما وظلَّ شامخًا وكأنّه سقط واقفاً؛ فلن يعيبه الناسُ أو يذّلونه بأيّ نوع من الإهانات بعد الآن، ولكن تلك الأصنام التي تشكّل ملاذًا روحانيًا بالنسبة لبعض البشر، ما إن تسقط حتّى تنهالَ عليها الإهانات واللعنات من جميع الاتجاهات.

أمي العزيزة، بما أنّه ليس لديك سببٌ وجيه يتعلّق بي يجعلك تذرّفين دمعًا، فإنّك تبكين من أجل نفسك. وهنالك سببان لذلك: إمّا أنتِ تشعرين أنّك فقدتِ بعضَ الحماية، أو بسبب عدم تحمُّلك لفكرة الاستغناء عني.

ولكنني لا أرجحُ السببَ الأول لأنك - وكما مشاعرك الجياشة - تحيّن أطفالك كيفما كانوا من دون قيدٍ أو شرط. دعك من أولئك الأمّهات اللائي يستغلنّ مناصبَ أطفالهن، وخصوصًا في ضوء عدم وجود تأثير حقيقي للمرأة وعدم قدرتها على شغل مناصب سياسية أو قيادية، فهنّ يسعين للقبوّة من خلال أطفالهن، يستنزفن أسلافهنّ أيضًا ويتسلّطن على أكتاف ذويهنّ وبلاغتهم في سبيل تحقيق مكاسب شخصية. وحيث

إِنَّكَ أَنْعَمْتَ بِكَثِيرٍ مِنْ هَدَايَا أَبْنَائِكَ وَلَكِنَّكَ بِالكَادِ اسْتَحْدَمْتِهَا، فَلطالما وضعت حدًّا لكرمنا بينما كان كرمُك لا يعرف حدًّا أو شرطًا، وبينما كان والدُك ما يزال حيًّا كنتَ تقدمين الكثير من الهدايا لأبنائك الأثرياء بالفعل، اعتنيتِ بميراثنا كما لو كانَ من ممتلكاتك، وكنتِ حريصةً على كلِّ تفصيلٍ آخر، تحفظتِ في استخدام نفوذنا كما لو أننا أشخاص غريبون غير أبنائك، وفي توألتنا للمناصبِ لم يكن لديك أيُّ إفادة سوى سعادةٍ تكنيها لنا وانفراج ماليٍّ علينا جميعًا. مشاعرك لم تعرفِ اعتباراتٍ أو أسبابًا لمصالح شخصية، فليس عليك الاستياء بعد أن فقدتِ ابنك، ليس عليك الحزنُ على ترفٍ لم يكن ذا أهميةٍ بالنسبة إليك قط.

يجب أن أوجه عزائي إلى تلك النقطة التي تنشأ منها أشدُّ الأحران الحقيقية للأمم. عندما تقولين: «حُرمت من عناقِ ابني العزيز، لم يعدُّ بإمكانني التمتعُ برويته ولا التزهُرُ بسماع حديثه. أين هو الذي بحضوره يخففُ وطأة ارتياحي، أين هو الذي عهدتُ إليه بجميع أحزاني المدفونة؟ أين هي حواراتنا التي لم أضجر منها قط؟ أين هي دراساته التي شاركته إياها بمشاعر تعلو المشاعرَ الأثوية وحرص الأمهات؟ أين هي لقاءاتنا المعتادة؟ أين هي لهفته الصببانة عندما يراني أنا والدته؟» وأضيفي إلى ذلك أماكننا المعتادة التي امتزجتُ فيها عواطفنا، والذكريات الدافئة فيها، أظن أن تلك هي مصدرُ الألم الحقيقي الأكثر حدةً بالنسبة إليك. وكأن القدرَ خططَ لهذه الضربة القاسية بحقك، إذ أنه -وقبل يومين فقط من اختفائي- وجدَّ قلبُك الطمأنينة الأزلية، وشعرَ بالراحة بعد طول انتظار ولكنه لم ينعم بها في نهاية المطاف. من جهةٍ أخرى، يمكن استخراجُ جانبٍ إيجابيٍّ من ابتعاد المسافات بيننا مسبقًا، وهي أنك خضتَ هذه التجربة بعد غيابي لسنوات عدة، إلا إنك لن تجدي ابنك مرةً أخرى. وإن كنتِ قد هجرتِ بكيانك أكثر لكان تحملُ هذه الخسارة ميسورًا

عليك؛ لأنَّ بُعد المسافات يطفئ نيرانَ الشوق. وإن لم تذهبي وظللت
تنعمينَ المكانَ بمعزوفاتِ همساتك الرقيقة، لتمكَّنت من رؤية ابنك
لبضعة أيام أكثر. هذه هي مشيئةُ القدر، مشيئةُ حالت بك ألا تكونين
حاضرةً تحديقين ما بين أجفاني لمرةٍ أخيرة، ولا تقوينَ على كبح عويل
فؤادك لغياي. ولكن، كلما كانت الظروفُ تنهال بخناجرها على كتفيك
كان عليك التحلّي بالشجاعة، وتحمّم عليك القتالُ والصمود في وجه
طعناتها، كما هو الحال مع عدوّ قديم اعتدتُ على مُقارعتة، فمغارزُ سيفه
لن تقطع جروحًا جديدة في جسدك، بل إنَّ ندوبًا قديمة سيتجدد دمعها.

عليك ألا تنظري إلى نفسك كامرأةٍ يحقُّ لها البكاء والحزن إلى ما لا
نهاية، فمن هذا المنطلق سمحَ أسلافنا للأرامل بالحداد على أزواجهنَّ
لمدة عشرة أشهر، بنيةٍ مجانسة المنطق العام وجياشة عواطف الإناث. لم
يحظروا الحدادَ ولكنهم حدّوا منه. فأن تكوني مفجوعة بحزنٍ سرمدٍ
على شخص عزيز عليك هو انغماسٌ أحقُّ في الذات، وانعزالك بعواطفٍ
غيرٍ مبالية بالمحيط هو أبعد ما يكونُ عن الإنسانية. الحلُّ الأمثل لتحقيق
التوازن في عواطف النفس البشرية هو الشعورُ بالشوق ولكنَّ التغلبَ
عليه أيضًا. لا تهتمّي بأولئك النساء اللاتي وحدَهُ الموتُ من وضع
نهايةً لحزنهن. ثيابُ الحداد تدلّت على أجسادهن ولم يخلعنّها منذُ فقدان
أبنائهن. فمسارُ حياتك طرّز بالشجاعة منذُ بدايتها ورُسّمت فيها دروب
خضراء، لستِ ممن عُذر لهم بطبيعتهنَّ الأنثوية، فلم تجدُ تلك الأخيرة
مكانًا بين صفاتك. ومع كلِّ الملذات التي تسحبُ بالمرء إلى أعماق الرذائل
مقتادًا بشهوته غير العفيفة، لم تتأثري ولم تعركِ جوهرةً مثقال كَفٍّ ولا
لؤلؤة صفو السماء، بريقُ الثروة لم يلمع في عينيك رغم كونه نعمةً
للجنس البشري. نشأت في أسرةٍ محافظةٍ تقليدية، ولم تنظري إلى أولئك
النساء الطليقات، وعلى الرغم من تقدمك في السن لم تستحي يومًا من

خصوصيتك، لم تتطَلَّعي لتلك المجموعة من النساء اللاتي يسعين لإبراز
 مفاتنهن، جاهرتِ بحمْلِك غيرِ آبهةٍ بما تحمله الأيام حتى لو أجهضتْ،
 عكس أولئك الذين ينظرون إليه كأنه أمرٌ مشين، لم تفسدي نضارة بشرتكِ
 بالمستحضرات والموادِّ التجميلية، لم تكثرِثي بنوع الثياب المستفزة تلك،
 والتي بخلعها حتى لن تكشفَ جزءاً جديداً من الجسد! رأيتُ فيك تلك
 الحلي المُبهرجة، ذلك الجمال الاستثنائي عبر العصور، رأيتُ فيك ذلك
 المجد الأعظم على الإطلاق، رأيتُ فيك التواضع. فلا يمكنكِ الاحتفاءُ
 بقبةِ النساءِ وطبيعتك الأنثوية التي تميزتُ عنها مناقبُك بنية تبريرِ حزنك،
 عليكِ أن تكوني حصينة تجاه الدموع الأنثوية كما الرذائل الأنثوية. فحتى
 النساء لن يسمحنَ لكِ بالإبحار في حزنك، بل سيؤكِّدنَ عليكِ لتحظي
 بفترةٍ حدادٍ كفيلة لتعودي قويةً كما كنتِ، مقتدينَ بأولئك النساء اللواتي
 أسماؤهنَّ تسبقُ أعظمَ الرجال. شاءَ القدر وقلَّصَ أبناءَ كورنيليا⁽¹⁾ من
 اثني عشر إلى اثنين، إن أردتُ إحصاءَ مصابها، فقد فُجعت بعشرةٍ من
 أولادها، وإن أردتُ تخيلَ حجمَ مُصابها، فلقد خسرت الأخوين غراتشي.
 ولكن عندما بدأ من حولها بالبكاء، ولومَ القدر على ما حصل، منعتهُم
 من ذلك، ورفضتُ تحميلَ القدرِ ثقلَ مُصابها، بل نظرتُ إلى الأمرِ على
 أنَّ القدرَ قد أنعمَ عليها بالأخوين كأبناءٍ لها في المقام الأول. وكان الابن
 مشاركاً لِحِصالِ عزمِ أمِّه حين قال في أحدِ الاجتماعات: «أتهينُ الأمَّ التي
 أنجبتني؟» ومع ذلك، أجدُ كلماتِ الأم أكثرَ حماسةً، فكان الابنُ فخوراً
 بنسلِ غراتشي، أما الأمُّ كانت فخورةً بإرثهم أيضاً. تبعتُ روتيليا ابنها
 إلى المنفى، وكانت أحادية التفكير في خطوتها هذه، حيث إنَّها فضَّلت
 المنفى على تحملِ مشاعر الشوق تجاه ابنها ولم تعدْ إلى المنزل إلا حينها عاد

(1) كانت كورنيليا الابنة الصغرى لشيثرون، ووالدة الأخوين غراتشي، اشتهرت
 كمرربة رومانية نموذجية.

ابنُها معها. وعادت معه مكانته الاجتماعية كشخصية بارزة، وافته المنية بعد ذلك، ولكنها تحمّلت خسارته بشجاعة كما شاركته منفاه، ولم تُشاهد تذرفُ دموعًا بعد جنازته. أظهرت الشجاعة عندما نُفي، والحكمة عندما تُوفي، لم يمنعها شيء من إبانة حُبّها، ولم يحثها شيء على الاستمرار في حزنِ سوداوي عديم الفائدة. أريدك يا أمي أن تكوني مع هذه الفئة من النساء، أريد أن يكون اسمك مصاحبًا لاسمهن. لطالما تطلعت للمضي مثلهن، فمن الأفضل أن تحذي حذوهنّ، وتسيطرِي على حزنك.

أعلمُ أنّ هذا الأمر ليس ممزوجًا بطبيعتنا، وليس لنا سيطرةً عليه، لا يمكننا التحكمُ بمثل هذه العواطف القاهرة، خاصّةً تلك التي يستجرها الحزن القاتم، فهي تعاندُ وتقاوم بضراوةٍ شتى أنواع العلاج. في بعض الأحيان نرغبُ في التخلص منها وابتلاع آهاتنا، ولكن رباطة جأشنا وكبحنا للملحنا تجعل الدمع يسيل على حين غرة. وأحيانًا أخرى، نحاول إلهاء أنفسنا بالعروض العامة ومسابقات الترفيه، ولكن في خضمّ أصوات الضجيج وتطاير الغبار هنا وهناك في الحلبات، ومن بين ذرات الغبار تلك؛ نجد أنّ أذهاننا سرحتُ ودخلت عالمها الجريح حيث مآسيها قابعة بين جدرانها. فعلى ذلك، من الأفضل التغلبُ على كربنا لا التحايلُ عليه؛ لأنّه إذا تمّ تهميشه وخداعه بملذاتٍ وانشغالات، فسيعودُ من جديد ويكتسح صفوتنا بقوةٍ همجية لا رادع لها. بينما ذاك الحزن الذي تمّ التغلبُ عليه بعقلٍ ووقار، فمصيره ركودٌ أزلي. لذلك لن أوصي بتلك السبل التي يستخدمها العديدُ من الناس، يذهبون في رحلاتٍ طويلة أو يتخذون من مُمتلكاتهم أنيسًا، أو حتّى يواظبون على نشاطاتٍ عديدةٍ في سبيل إلهاء أنفسهم. جميعُ تلك السبل سطحيةٌ وتأثيرها قصير المدى، لا تعالجُ الحزن؛ بل تعيقه. لكنني بالمقابل أفضلُ اقتلاعه من جذوره بدلًا من ذلك التشتيت. لذا، أودُّ أن أقترحَ عليكِ دراسات الحكمة كملادٍ ثمين

يجسد ملجأ لأولئك الذين يفتك بهم القدرُ بأعاصيره الطائشة. ستشفى جروحك وتغوص بك للتخلص من أحزانك المدفونة، حتى لو لم تكوني على دراية مُسبقة بها، فأنت بحاجة الآن. وعلى الرغم من صرامة والدي وطبيعته التقليدية إلا إنك قد تشربت جزءاً من فنون الحكمة من حينٍ لآخر. ولو كان والدي العظيم أقل تمسكاً بالتقاليد الموروثة، وتركك تنغمسين في دراسة الفلسفة بدلاً من معرفة القليل منها فقط، فلن تكوني مضطرة الآن لبناء دفاعك ضد تقلبات القدر ولكن تكتفي بإبراز تحصيلك المسبق. كان ميالاً للسماح لك بالقراءة بسبب النساء اللواتي يستخدمن الكتب للترفيه لا لاكتساب الحكمة. ومع ذلك، بفضل عقلك كثير الفضول والتعطش للمعرفة استوعبت الكثير مقارنة بالوقت المتاح لك، اكتسبت جميع الأسس المعرفية ومزجتها داخلك. والآن، وجهي بناظريك نحو ذلك الفكر الفقيه، وستعود ثمارها عليك كمنزل آمن.. ستريحك وتُسعدك، وإذا تغلغلت في داخلك فلن يدخل الحزن إلى قلبك مرة أخرى، لا القلق أو الضيق أو حتى المعاناة العقيمة ستجرؤ طرق بابك. لن يكون لقلبك متسع لأي من هذه بعد الآن لأنه ببساطة سيكون قد أغلق أبوابه بوجه هذه الإخفاقات منذ زمن طويل. هذا العلم هو صورة التحصين الأكثر موثوقية، وحدها قادرة على تخليصك من قبضة تقلبات القدر والحظ.

ولكن إلى أن تصلي إلى الصّفوف والوقار المطلق كما وصفه وهياً الفلاسفة، عليك أن تتطلعي إلى الأشياء التي تجلب لك الدعم في الوقت الحالي: لذلك، في هذه الأثناء أود أن أتناول في تفاصيل عزائك. فكري في إخوتي.. ليس لديك سبب للشكوى من القدر ماداماً على قيد الحياة، ففي كليهما لديك فضائل متناقضة تدعمك وتُسعدك، أحدهما ارتقى بمكانته ومناصبه العامة بفضل قدراته الخاصة، وآخر كانت لحكمته رأي

آخر وقرّر تجاهل تلك الأمور السطحية بالنسبة إلى مبادئه وقيمه الخاصّة الأكثر أهمية. خُذي الراحة من تميّز أحدهم، وتقاعد الآخر، وتفاني كليهما. أعرفُ حقَّ المعرفة ما هي مشاعرُ إخوتي الحقيقية. ذاك الذي عزّز وطوّر نفسه ليصل إلى التميز واضعاً نصبَ أعينه الشرفَ والفخر اللذين ستشعرينَ بهما، بينما الآخرُ تقاعدَ في سلام وهدوء من أجل توفير الوقت لقضائه معك. القدرُ قدّم لك خدمة في إعداد أطفالك كي يقدم لك المساعدة والبهجة في آنٍ معاً، سموّ أحدهما سيقدمُ لك القوة، وتقاعدُ الآخر سيقدم لك الراحة والبهجة. سيتنافسان على إسعادك وتوجيه جوارحهما لراحتك، وإنّ تفاني اثنين سيسدُّ فجوةَ فقدان واحد. أعدكُ بكامل الثقة أنّه ومهما حدثَ لن تفقدي سوى عدد الأبناء.

وتاليًا، عليكِ التفكيرُ في أحفادكِ: ماركوس؛ الطفل الصغير الذي يملأ وجوده المكانَ بالبسمة، لا يمكن للحزن أن يتملّككِ أثناءَ نظركِ إليه، ولا يمكن لألم شديدٍ إلا أن يزول بعد حديثٍ أو عناقٍ له. مَنْ منّا لن تهدأ دموعه وهو أمام ناظرينا؟ مَنْ منّا سيملكه القلقُ أثناءَ ثرثرته المُفعمّة بالحوية؟ مَنْ منّا سيخفي بسمته أثناء لعبه ومرحه؟ مَنْ منّا ومهما كان تفكيره مركزًا على شيء معين، لن يسرح وينجذب إلى تلك الخُدع الطفولية التي لا يضجر أحدٌ منها؟ أدعو الآلهة أن تحميه! أتمنى أن تُبلي تقلباتُ القدر والبلاء نفسها وتتوقف عندي. ومهما كان مقدّرًا لك أن تعاني من مأسٍ كأُمٍّ أو كجدّةٍ أتمنى أن تصبّها الآلهة جميعها عليّ.. لتعش عائلتي براحةٍ وطُمأنينة من دون أيّ عوائق. لن أشكو من فقدان ذريتي، لن أشكو من منفاي، فقط إن أيقنتُ أنني كبشُ فداء لعائلة لن تعاني بعد اليوم. احتضني نوفاتيلًا، فقريبًا ستنجبُ لك أبناءَ أحفادك، لقد تعلقتُ بها وتبنيتهما لدرجة أنّها ستغدو يتيمةً بعد فقدانها لي، على الرّغم من أنّ والدها على قيد الحياة! اغمرها بحبِّك من أجلي أيضًا. فالقدرُ قد حرّمها

من أمها مُسبقًا، ولكن وجودُ مشاعرك تحتضنها سيضمنُ لها عزاءً لأمها من دون معاناة. والآن عليك أن تصقلي شخصيتها؛ فالتعليم في هذه المرحلة الفتية يترسخ داخل الإنسان؛ دعيها تعتادُ على محادثتك وتبادل الأفكار معك بالشكل الصحيح كما ترينه، ستقدِّمين لها الكثيرَ حتَّى لو ألقيتَ عليها سيرةَ حياتك. هذا الواجب المقدس سيكونُ بمثابة علاج بالنسبة لك، وحدها الفلسفة والقيم السامية يمكن أن تسمو بقلبٍ ملأته المآسي النابعة عن الحب.

وإن لم يكن غائبًا أودُّ أن أذكر والدك كأحدِ سبل الراحة العظيمة لديك، يجب أن تحبِّه قدرَ ما أحبك، وستدركين كم أن حزنك واستنفاد نفسك من أجلي ليس عادلاً، عليك أن تحافظي على صلابتك ورباطة جأشك من أجله. حين يأتيك الحزنُ ولا ينفكُ عن مهاجمتك، حين يصرُّ على الدخول إلى قلبك، فكري في والدك. وبالتأكيد، بإنجابك له العديد من الأحفاد وأبناء الأحفاد لم تعدي ذريته الوحيدة، ولكن بالنسبة إليه، الحياةُ السعيدة لا تكتمل إلا بوجودك، وبينما هو حيٌّ يُرزق، لا يمكن لقلبك أن ينحبَّ على من وافتهم المنية.

وحتَّى الآن لم أقل شيئًا عن أعظم مصدرٍ للعزاء بالنسبة إليك - شقيقتك - ذاك القلبُ الأكثر إخلاصًا لك، والذي تدفينَ فيه جميع مخاوفك من دون تحفظ، تلك الروحُ البهية التي كانت أمًا لنا جميعًا. لقد امتزجت دموعك بدموعها؛ ومن أحضانها عدتُّ للتنفُّس مرَّةً أخرى. لطالما شاركتك مشاعرك، ولكنها في حالتي هذه لم تحزنْ عليك فقط.. حملتني بين ذراعيها إلى روما، وخلال فترة مرضي الطويلة كان حبُّها ورعايتها التي تتجسَّد فيها مشاعرُ الأمومة هي من أنبضت قلبي بالطاقة. عندما تمَّ ترشيحي لمنصب الكريستور، كانت بجانبني، وبالرغم من أنَّها

تفتقر للثقة حتى من أجل محادثة أو إلقاء تحية بصوت عالٍ؛ إلا إنَّ جبهالي قد قهرَ حاجزَ الخجل لديها. لا أسلوب حياتها الحذر، ولا تواضعها (يعتبر قديم الطراز مقارنةً بجرأة النساء السائدة في هذا الوقت)، لا هدوءها، ولا طبيعتها المتحفظة التي أرادت السلامَ والهدوءَ منعوها من الطموح والتطلع من أجلي. فهي -يا أمي العزيزة- مصدرُ الراحة الخالص بالنسبة لك، مصدر الراحة الذي يمكنك إحياء نفسك من خلاله، تشبَّي بها قدرَ ما استطعت وكأنك تعانقها. يميل الحزانى إلى تجنُّب أكثر ما يعيشونه، وإعطاء حزنهم متنفسًا، ولكن عليك مشاركة جميع أحزانك وما تفكرين به معها، سواء كنتِ ترغيبين في التعايش مع عزائك أو التخلص منه، في كلا الحالتين، ستجدين عندها إمامًا نهايةً لحزنك أو الشخص الذي سيشاركك إياه. ولكن إن كان يقيني صحيحًا حولَ حكمة هذا النوع من النساء فلن تدعكِ تغرقين في أحزانك وآلامك، وستشارككِ قصةً من حياتها من شأنها تهذيبُ وتقويم روحك، وأنا شهدتُ تلك القصة.

بينما كانت في رحلة بحرية فاتنة، شاءت الأقدار وخسرت زوجها -عمي- الذي تزوجته وهي عذراء، ومع ذلك، ما كان بها إلا أن تحمَّلت أعباء الحزن والخوف في ذات الوقت، وبالرغم من غرق السفينة، صارت الأعاصير العاتية والأمواج المجنونة، وأحضرت جسده إلى الشاطئ. يا لها من أعمال نبيلة وبطولية للنساء تدفنُ بينَ غموضٍ ونسيان! لو كان مقدراً لها العيشُ في حقبةٍ عندما كان الناس يبجلون البطولة؛ لتسابقت نخبة المجتمع آنذاك على تكريمها وتعظيمها بين قصائد وأشعارٍ لزوجته تجاهلت بنيتها الجسدية الضعيفة وتجاهلت البحرَ بجبروته المهيب وخاطرت بحياتها لدفن زوجها، بينما كانت تفكرُ في جنازة زوجها لم تأبه لموتها حتى! أعطى الشعراءُ الشهرةَ للمرأة التي ضحَّت بنفسها من أجل حياة زوجها. ولكن هذا أمرٌ أكثر نبلاً، أن يعرض المرء نفسه للخطر من

أجل دفن زوجته: فهذا هو حبُّ أعظم، حبٌّ يدفعك للقيام بشيء لن يأتي لك بالكثير مع نفس مستوى المخاطرة.

بعد ذلك، لن يُفاجئ أحدهم أنه -وخلال الستة عشر عامًا التي حكم فيها زوجها مصرَ لم تُر بين العامة أبدًا، ولم تستقبل أيَّ نوع من الضيوف في منزلها، ولا حتَّى طلبتُ من زوجها أيَّ استثناء من أجل خدمة أو رفاهية ما، لم ترضَ أن تُسن استثناءاتٍ على اسمها. ونتيجة لذلك، أن المقاطعة التي حكمها زوجها- والتي كانت معروفة بالثرثرة وإهانة الحكام مها حاولوا تجنب الأخطاء وتلافي الفضائح؛ احتراموها واعتبروها رمزًا للنزاهة، وتحفظوا في كلِّ خطاب أو شيء يقولونه (وهذا إنجازٌ صعب للغاية حيث إنه حتَّى الطرف المؤذية كانت منتشرة آنذاك)، وعلى الرغم من أن حلمهم بعيدُ المنال، لكنهم مازالوا يأملون الحظي بشخصيةٍ مثلها في تلك المنطقة. كم كان إنجازًا عظيمًا أن تحصل على تأييد المقاطعة وتحكمَ لمدة ستَّ عشرة سنة؛ ولكنه كان من الأفضل أن تبقى بعيدةً عن الأنظار وبين الظلال. إني لا أدرجُ هذه الأشياء بنيةً سرد صفاتها الحسنة (ذكرهم بشكلٍ سطحي لن يكون منصفًا بالنسبة إليها)، ولكن لإعطائك فكرة عن العقلية السامية للمرأة التي لم يغزها الجشع والطموح، الصفات الحتمية المصاحبة للقوة والسلطة هي التي لم تدغ حطامَ السفينة يكون عائقًا أمامها، لم يردعها الخوف من التشبُّث بزوجها الميت، لم تبحث عن وسائل هروبها بل كان هدفها الوحيد الوصول إلى جثة زوجها لدفنها. هذا مثالٌ على الشجاعة عليك الاقتداء به، عليك سحب عقلك من أجواف الحزن والحرص على أن لا أحد يظنُّ أنك تدمين على إنجازك لأطفالك.

ومع ذلك، مهما فعلتِ وحاولتِ، سيحيز تفكيرك تجاهي، ولن يتبادر إلى ذهنك أطفالك الآخرون، ليس لأنك تفضليني عليهم ولكنه أمرٌ طبيعي أن ينحاز العقل إلى أكثر المواضيع إيلاماً بالنسبة إليه. لذا، هذه هي الصورة التي يجب على عقلك أن يجيئها لي.. سعيدٌ ومبتهجٌ كما لو كنت أنعمُ بأفضل الظروف.. لأنها الأفضل، فعقلي ليس رهناً أغلالٍ، حرٌّ في بحر مهامه، يستأثر الآن بدراساتٍ متواضعةٍ بحثاً عن سلسلة الحقيقة بين طبيعته والكون الفسيح. يسعى لمعرفة طبيعة الأراضي وموقعها أولاً، ثم ماهية البحر المحيط وانحسار المدّ والجزر، فيتجه لتقصّي ذاك الامتداد الواسع بين السماء والأرض؛ فضاء أقرب هائجٍ بمطارق الرعد والبرق، عواصف الرياح وأمطارٌ تتساقط كالدموع مصحوبةً بثلوج وبرد. وأخيراً، وبعد أن جاب المناطق السفلية، يشقُّ طريقه عاليًا نحو الأعلى، يتلذذ بمشاهدة مناظر إلهية، تائهاً بخلودها، طافياً فوق كل ما كان، وسيظلُّ راسخاً عبر العصور.

مكتبة

t.me/soramnqraa

حول سكينَةِ العقل

سيرينوس⁽¹⁾: عندما خَزَرْتَ أعماقَ نفسي يا سينيكا، وجدت بعض عيوب طافية على السطح، تمكَّنت من رؤيتها بوضوح كوضوح البدر في سماء قد صَفَّتْ بليلاً، بعضها كان يتَّخذ من الأعماق ملجأً، والبعض الآخر كان يطفو بشكل متقطع على السطح. يمكنني القول إنَّ تلك الأخيرة هي الأكثرُ إزعاجًا؛ إنَّها كالأعداء الذين يطوفون في الأرجاء خلسة، ثمَّ ينقضون عليك عندما تسنحُ لهم الفرصة، من دون أن يتيحوا لك المجال لأن تستعدَّ إن كنتَ في فترة حرب، ولا لأن ترتاح إن كنتَ في فترة سلم. رغمَ ذلك، فإنَّ الحالة التي غالبًا ما أجدُ نفسي فيها (لأنَّه ما السبب الذي يحول دون أن أعرَفَ لك بالحقيقة كما لو كنتَ طبيبًا؟) هي أنني لست حقًا خاليًا من العيوب التي خشيتها وكرهتها، لا أعتقد ذلك، ولكن من جهة أخرى، وكضحية لتلك العيوب هذا يضعني في حالة هي ليست الأسوأ، ولكنَّها في غاية الزلَّق والعدوانية، فأنا لستُ بمريضٍ ولا بصحَّة جيِّدة. لا داعي لأن تقول إنَّ كلَّ المناقب تكون هشة في البداية، لكنَّها تتبلور مع الوقت لتصبحَ ملساء وقويَّة، أعلم أيضًا أنَّ من يكَّدون لتركِ انطباع جيِّد لدى الآخرين ساعينَ للمناصب العليا على سبيل المثال، وسمعة رنانة في البلاغة، وكل ما يتعلق بإرضاء الآخرين، يستغرقون وقتًا لينضجوا، كلا أولئك الذين يمتلكون قدراتٍ حقيقية وأولئك الذين يزيِّنون أنفسهم بنوع من الحليِّ المزيفة؛ هادفون للشعبية، عليهم الانتظارُ لسنوات كي يصقل الوقتُ معدنهم الحقيقي شيئًا فشيئًا.

(1) صديق لسينيكا.

ولكنني أخشى أن العادة التي تقود للثبات على الأمور قد تسحب
هذه الخطيئة إلى أعماقي أكثر فأكثر، فالارتباط طويل الأمد يجلب حب
الشر كما الخير.

ليس بمقدوري إبانة طبيعة هذه التقيصة النفسية التي تتذبذب بين
احتمالين، ولا تتخذ أيًا من الصواب أو الخطأ منحى تميل نحوه بوضوح.
سأخبرك بما يحدث لي عسى أن تجد اسمًا لهذه العلة، علي الاعتراف بأنني
كلفت حياة التقشف، لا تجذبني الأريكة المزخرفة بشكل مُبهر، ولا
التياب التي تُنتشل من صندوق، أو الملمعة منها تحت إزر الأثقال إلى أن
يتم تشويهاها؛ وإنما تغويني تلك المصنوعة منزليًا زهيدة الثمن، لا تلك
التي تُحبأ لتثير جدلاً وضجة عند استخدامها، ولا يستهويني الطعام
المطهيُّ والمحضَّر بعناية من قبل العبيد الذين يعملون خدمًا للمنزل، ولا
الذي يتمُّ البدء في إعداده قبل أيام عدة، ولا الطعام الذي تقدّمه العديد
من الأيادي؛ وإنما ذلك الذي يسهل الحصول عليه وتناوله، ولا يحتوي
على مكونات غير اعتيادية أو باهظة الثمن، بل هو متوفّر في كل مكان،
لا يرهق المحفظة ولا الجسد، ذاك الذي ليس مُقدّرًا له أن يخرج من ذات
الطريق الذي دخل منه. أريد خادمي أن يكون عبدًا عاديًا، من السكان
المحليين، ممّن ليسوا ذوي كفاءة، أريد أن تكون الفضّة خاصّتي من
الأدوات الثقيلة لوالدي الريفي من دون أن تكون موسومة بأيّ دمغة
مصوغات، وألا تكون على طاولتي أغراض متنوعة وبرّاقة وغير مألوفة
لسكان البلدة بعد التغييرات المتعدّدة إنتاج أصحاب الموضة، بل أغراض
معدّة لتستخدم، وليس لتشتت أعين الضيوف بلألتها وملئها بالحسد.
ولكن عندما أضع هذه المعايير، أجد ذهني مبهورًا بالزخارف الجميلة
لمدرسة تدريب الخدم، حيث العبيد مُسرّبلين بعناية ومزيّنين بالذهب كما
لو أنّهم في موكب استعراضيّ يجوب الشوارع، وجيش كامل من الخدم

المثلاًئين بقرب منزل تمشي بجانبه على أحجار كريمة، حيثُ الثروة مُبعثرة في كل زاوية، والسقف يبرقُ بحد ذاته، وجميع الجواهر يحضرون باحترام إلى أنقاض إرث عائلي، وهل أنا بحاجة لذكر أحواض السباحة صافية المياه حتى أعمق نقطة فيها؟ والتي تندفق حول ضيوف العشاء، أو حتى الولايم التي تليق بمُحيطهم؟ بعد أن كنتُ مستسلماً لحياة التقشُّف، وجدت نفسي مُحاطاً بروعة الفخامة لترفٍ يترددُ رجعه في كل مكان من حولي، بدأت رؤيتي تضحلُ نوعاً ما، لأنني أستطيع لأن أرتقي بعقلي لمواجهة تلك الفخامة بشكل أسهل منه عند عيني. وهكذا كنتُ قد عدتُ ليس كشخص أسوأ وإنما أتعس؛ أنا لا أتحركُ رافعاً رأسي وسط ممتلكاتي التافهة، وسرٌّ يثير شكوكاً كانت غير مألوفة لديّ فيما إن كانت الحياة أسمى، لا شيء من هذا يغيّرني، إلا أنه ينجح كل مرة في دبّ الذعر فيّ.

قرّرت أن أسيرَ على خطى وتعاليم مُعلّمي، وأن أشغل نفسي في شئون الدولة. قرّرت أن أتولّى منصباً حكومياً، بالطبع ليس لأجل الرّداء البنفسجيّ وعصيّ الليكتور⁽¹⁾، ولكن لأكون أكثر جاهزية لمساعدة أصدقائي ومعارفي، ولأجل جميع المواطنين، ومن ثمّ لكلّ الجنس البشري، وبكلّ حماسة أنا أتبع زينون وكليانثس⁽²⁾ وخريسيبيوس⁽³⁾، والذين لم يشغلوا مناصبَ حكوميّة على الرغم من أنّهم حثوا الآخرين على فعل ذلك. كرّرت فكرةً معيّنة على رأسي -الذي لم يعتدّ على ذلك- ألا

(1) اللكتور: هم فئة من الخدم المدنيّين في روما القديمة، كانوا يعملون بالدرجة الأولى كحرس شخصيّين لشخصيّات هامة وعالية الشأن في الجمهورية والإمبراطورية الرومانيّتين، ويمتلكون صلاحياتٍ لقيادة الجنود.

(2) كليانثس: هو فيلسوفٌ رواقّي، وكان من تلاميذ كراتس الطيبي وزينون الرواقّي قبل أن يصبح زعيم المدرسة الرواقية.

(3) خريسيبيوس: فيلسوف يوناني رواقّي، انتقل إلى أثينا حين كان شاباً، وأصبح تلميذاً لكليانثس في المدرسة الرواقية.

وهي في حال حصول شيء هو إما لا يليق بي (وهي تجربة شائعة في حياة كل شخص)، أو يصعب عليّ التعامل معه، عندما تستغرق الأمور غير المهمة وقتًا طويلًا لتجئ للفراغ، وأشقُّ طريقي بشكل أسرع إلى المنزل، تمامًا كقطعان الحيوانات المنهكة. قرّرتُ أن أقيّد حياتي داخل أسوارها قائلاً: «لن أدع أحدًا يسلبني يومًا واحدًا إن لم يكن سيمنحني تعويضًا مساويًا له. سأفتح المجال لعقلي أن ينفصل عن الواقع ويصقل نفسه بنفسه، أن يتخلّى عن جميع المصالح الخارجية ويرتدّ عن السعي لأن يحوز القبول من الآخرين، سأدعُه يهناً بالهدوء البعيد كلَّ البعد عن القضايا العامة أو الخاصة». ولكن عندما يُثار ذهني عبر قراءة سيرة مُرضية عن شيء مُقنع، ومردف بأمثلة نبيلة، أتشوّق لأن أنزل بين الملاء، لأتحدّث بالنيابة عن شخص ما، وأمدّ يد العون إلى آخر، الأمر الذي سيكون على أقلّ تقدير -ولو لم ينجح- محاولة للمساعدة، أو لأن أضع حدًا لكبرياء شخص آخر ولما لديه من تغطرس تّمّاه النجاح.

لطالما اعتقدتُ في دراساتي أنّه من الأفضل لي أن أسلّط الضوء على موضوعي بشكل حازم وقطعيّ، وأدلي بأفكاري بناء على ذلك، وأن أسمح لهذا الموضوع بانتقاء كلماتي، وبذلك أكون قد أتقنت نهج الخطاب العفويّ غير المدروس. أتساءل ما الحاجةُ لأن أُخرج بشيء يدوم لعصور؟ لماذا لا تتوقّف عن محاولاتك لأن تجعل الأجيال القادمة تتحدّث عنك؟ لقد خلقتَ لتموتَ، والجنّازة الصامتة هي أقلُّ إزعاجًا. لذلك إن أردتَ ملء وقتك فلتكتب شيئًا بأسلوب بسيط لاستخداماتك الشخصية وليس لكي يُنشر.. سينزُر العناء اللازم إن قمت بالدراسة لليوم الحالي فقط. وعندما يخلق ذهني بأفكاره العظيمة عاليًا مرّة أخرى، يُصبح طموحًا للتقدّم، وتوافقًا للوصول إلى أعلى الإلهامات بلغته، وبذلك ينتج أسلوبًا

يتواءم مع بديعة الموضوع. ثم إنني أنسى قاعدتي ومبادئني في الكبح، وأنا
أحمل بعيدًا جدًا بواسطة صوتٍ لم يعد ملكي بعد الآن.

باختصار، هذا الضعفُ الكامن في نواياي الحسنة يضغط عليَّ في كلِّ
المجالات. أخشى أنني أزدادُ سوءًا شيئًا فشيئًا، أو (الأمر الذي هو أكثر
إثارةً للقلق) أنني معلقٌ على حافةٍ سفح كشخص لطالما كان على وشك
السقوط، وأنه من الممكن أن يكون لديَّ عيوب أكثر من تلك التي أراها،
إذ أننا نتبنّى وجهات نظرٍ حميمية جدًا عن شخصياتنا، وبتحيزٍ يؤثر دائمًا
على حكمنا. أتصوّر أنّ العديد من الأشخاص كان بإمكانهم أن يطلوا
الحكمة، لو لم يحسبوا أنهم قد أوصلوا إليها بالفعل، ولو لم يخفوا بعض
صفاتهم ويغضوا الطرف عن أخرى، حيث إنّه ليس هناك سببٌ للاعتقاد
بأننا نخفق بسببِ إطراءات الآخرين علينا أكثر منه بسببِ إطراءاتنا على
أنفسنا. من تجرأ على أن يقول الحقيقة لنفسه؟ من الذي حتّى عندما يكون
مُحاطًا بمجموعة من المتملقين غربيي الأطوار لا يكون هو أعظم إطراء
لنفسه؟ لذا سأطلبُ منك إن كان لديك أيُّ دواء لهذا الاضطراب العقليّ
أن تعتبرني جديرًا بالحصول على السكينة، أنا أدرك أنّ احتياجاتي الذهنيّة
ليست خطيرة ولن تعصف. ولكي أُعبر عن شكواي لك بتشبيه واقعيّ،
إنّ تأرجحي ليس بسبب عاصفة بل بسبب دوّار البحر. أيّا كان مرضي،
اجتته واهرع لمساعدة هذا الشخص الذي يكافح ليُمحو الغباشة عن عينيه.

سينيكاً... بالفعل، لطالما كنتُ أسأل نفسي سرًا يا سيرينوس بماذا
عليّ أن أشبه هذه الحالة الذهنية، ولم أتمكن من إيجاد تشبيهات أكثر دقة
من حالة أولئك الذين نجوا من أمراض خطيرة استمرت معهم لفترات
طويلة، ولكنهم مازالوا يعانون أحيانًا -وبشكل طفيف- من الحمى
والألم، فحتّى عندما يشفون من الأعراض الأخيرة هذه يقون قلقين

ومُحِبِّطِينَ، وبالرَّغْمِ من أَنَّهُمْ أَفْضَلُ حَالًا يَسْتَمِرُّونَ فِي طَلْبِ يَدِ الْعَوْنِ مِنَ الْأَطْبَاءِ، وَيَشْتَكُونَ بِلا دَاعٍ إِنْ شَعَرُوا بِأَيِّ ارْتِفَاعٍ لِحَرَارَتِهِمْ. بِالنِّسْبَةِ إِلَى هَؤُلَاءِ الْأَشْخَاصِ يَا سِيرِينُوسَ، لَا يَتَعَلَقُ الْأَمْرُ بِأَنَّ أَجْسَادَهُمْ لَمْ تَشْفَ بِشَكْلِ كَافٍ، بَلْ بِأَنَّهُمْ لَمْ يَعتادوا بِشَكْلِ كَافٍ عَلَى أَنْ يَكُونُوا مُعَافِينَ، تَمَامًا كَمَا هُوَ الْحَالُ عِنْدَمَا تَظْهَرُ بَعْضُ الْأَمْوَاجِ فِي بَحْرِ هَادِيٍّ، وَخَاصَّةً إِنْ كَانَ هَدْوُوهُ قَدْ تَلَا عَاصِفَةً. مَا تَحْتَاجُهُ لَيْسَ الْعِلاجُ الْجَذْرِيُّ الَّذِي قَدْ انْتَهَيْنا مِنَ الْكَلَامِ عَنهُ الْآنَ - أَنْ تَعْتَرِضَ نَفْسُكَ هُنَا وَتَوَجَّهْ نيرانَ غَضَبِكَ عَلَيْهَا، أَوْ تَهَدِّدْ نَفْسَكَ بِصِرامَةٍ فِي مَكَانٍ آخَرَ - وَلَكِنَّ الْعِلاجَ النِّهائِيَّ، أَنْ تَثِقَ بِنَفْسِكَ وَتُؤْمِنَ بِأَنَّكَ عَلَى الْمَسارِ الصَّحِيحِ، وَأَلَّا تَضَلَّ الطَّرِيقَ بِسَبَبِ الْمَفْتَرَقَاتِ الْكثيرةِ مُنْقَادًا وَرِاءَ أَشْخَاصٍ قَدْ تَاهَوا، وَلَا أَمَلَ فِي رَجْعَتِهِمْ، رَغْمَ أَنْ بَعْضَهُمْ يَتَمَعَّجُونَ فِي حَرِيَّتِهِمْ عَلَى مَقْرَبَةٍ مِنَ الطَّرِيقِ الصَّحِيحِ، وَلَكِنْ مَا تَتَوَقَّعُ لِأَجَلِهِ هُوَ شَيْءٌ عَظِيمٌ وَسَامٌ، وَيَكادُ أَنْ يَكُونَ مَقْدَسًا.. هُوَ أَلَّا تَتَزَعَّرَ ثِقَتَكَ بِنَفْسِكَ. يَطْلُقُ الْيُونانِيُّونَ عَلَى ثَباتِ الْعَقْلِ الْمُتَقَنَّ هَذَا اسْمَ «يُوثِرِنِيَا» (كَتَبَ دِيمُوقْرِيطُوسُ⁽¹⁾ مَقالَةً عَنهُ)، لَكِنِّي أَطْلُقُ عَلَيْهِ اسْمَ السَّكِينَةِ، فَلا حَاجَةَ لِتَقْلِيدِ أَوْ اسْتِنْسَاحِ صِياغَةِ الْكَلِماتِ الْيُونانِيَّةِ، فَمَوْضُوعُ النِّقاشِ يَجِبُ أَنْ يَعرَفَ بِوِاسِطَةِ مِصْطَلَحٍ يَحْتَوِي عَلَى الْمَعْنَى وَلَيْسَ الصِّغَةُ لِاسْمِ يُونانِيٍّ، فَلِذَلِكَ نَحْنُ نَبْحَثُ عَنِ الطَّرِيقَةِ الَّتِي يَمكِنُ فِيهَا لِلْعَقْلِ أَنْ يَتَّبِعَ مَسارًا سَويًّا وَثابِتًا، لِيُنظِّمَ نَفْسَهُ، وَيَحْظِيَ بِالسَّعادَةِ مَهْمَا كَانَتِ الظُّروفُ، وَمِنْ دُونَ انْقِطاعِ لِهَذِهِ الْمُتَعَةِ، بَلْ بِالبَقاءِ فِي حَالةٍ مِنَ السَّلَامِ مِنْ دُونَ آيَةِ تَقْلِباتٍ، هَذَا مَا يَدْعَى بِالسَّكِينَةِ. دَعْنَا نَرى كَيْفَ سَنَتَمَكَّنُ مِنَ الْوِصُولِ إِلَى ذَلِكَ، وَمِنْ بَعْدِها يَمكِنُكَ اسْتِخْلاصُ

(1) دِيمُوقْرِيطُوسُ: فِيلِسُوفُ يُونانِيٍّ، وَلَدٌ فِي أبْدِيرَةِ، تِراقِيَا، كانَ أَحَدَ الفِلاسِفةِ الْمُؤثِرِينَ فِي عَصْرِ ما قَبْلَ سَقراطِ، وَكانَ تَلْمِيذًا لِلْفِيلِسُوفِ لِيُوكِيبُوسِ، الَّذِي صاغَ النِّظريَةَ الذَّرِيَّةَ لِلْكَوْنِ.

ما يجلو لك من طرقِ العلاجِ الجماعيّ، يجب أن ينتشل الخلل بأسره ويوضع أمام العُلمن، ليتعرّف كلُّ شخص على الجزء الذي يحويه منه. ومع الوقت ستدرك كم أنّ مشاكلك مع اشمئزازك من ذاتك هي أقلُّ بكثير من مشاكل أولئك الذين يعتمدون على تصريحات زائفة، ويحيون رازحين تحت ألقابٍ مثيرة للإعجاب، وهم عالقون في دوامة من التظاهر بالرضى، لخزيهم من أنفسهم أكثر منه رغبة بذلك.

ويمكننا إدراجهم جميعًا تحت الفئة ذاتها، أولئك من المُبتلين بالتقلّب والملل وتغيّر الأهداف الدائم، والذين يتوقون إلى الماضي وما تركوه فيه خلفهم، والذين يُغالون بعدم اكتراثهم ولا مبالاتهم. وهنالك أيضًا أولئك الذين يتخبّطون باستمرار كما لو أنّهم يعانون من الأرق، ولا يتوقّفون عن تغيير مواقعهم ليجدوا الرّاحة والخلص من شدّة التعب الذي هم فيه، ويظلّون يغيّرون ظروف حياتهم، وفي النهاية يجدون أنفسهم عالقين بإحدى هذه الخيارات إلى الأبد، ليس لسأمهم من كثرة التغيّر، ولكن لأنّهم قد بلغوا من العمر مرحلة لا يمتلكون فيها طاقة لذلك. ولديك أيضًا أولئك الذين يرفضون الدخول في عراك الحياة والتخبّط فيها، لا لعدم ثباتهم الأخلاقيّ أو مبادئهم، بل كسلاً منهم ليس إلا، فلا يعيشون الحياة التي يتمنّونها بل يكملون الحياة التي بدؤوها. حقيقةً هنالك أعراض لا يمكن إحصاؤها للمرض، ولكن جميعها لها تأثير واحد، ألا وهو عدم الثقة بالنفس؛ وهذا يأتي نتيجة لعدم الاستقرار العقليّ والخوف والرغبات غير المُشبعة، عندما لا يمتلك الفرد الجرأة الكافية، أو لا يصل لكلّ ما كان يطمح إليه، ولا يرى في النهاية بين يديه سوى الأمل، فيصبح غير متّزن على الدوام، متخبّطًا هائمًا في الحياة، وهذه نتيجة لا مفرّ منها عندما يعيش الشخصُ في قلقٍ وترقّب. إنّهُ يكافح لتستجاب دعواته بشتّى الطرق، ويعلم نفسه ويجبرها على القيام بأمر شائنة وصعبة؛

وعندما تضيع جهوده سدى، يأتي الخزي العقيم ليعذبه على ما اقترفته يدها، ويندم ليس على خبثِ نواياه بل على فشله في أن يطال ما تمنّاه، وسيطر عليه الأسفُ الذي يجعله خائفًا من تكرار المحاولة، ومُرهبًا من إزْرِ عقلٍ قلبي لا يستطيع أن يجد أيَّ مُتَنَفِّسٍ (لأنّه ليس بمقدوره أن يطيع ولا أن يسيطر على رغباته)، وحياة مليئة بالتردد لا تعلم ما ينتظرها، وكسلٍ روح خاملة وسط الآمال المنسيّة. كلُّ هذه المصائب تصبح أسوأ مما هي عليه بسبب كرهه لفشله الذريع، فيعود الإنسانُ إلى التسيّب والدراسات الخاصّة التي لا يتحمّلها شخص حيويٌّ بطبيعته ويهتمُّ بممارسة الأنشطة المختلفة ويطمح للالتحاق بالخدمات العامّة، لأنّها في الأساس دراساتٌ تفتقر للمخرجات الإيجابية للعقل البشري. فبالنتيجة عندما تتلاشى سعادة الفرد التي وجدتُ بسبب انغماسه في الحياة العمليّة، لن يستطيع عقله أن يطبق فكرةَ المنزل والوحدة والجدران، وسيمقت أن يلاحظ عزلته الخاصّة. من هنا يتولّد ذلك المللُ وعدم الرضا الذي يعث بالعقل المضطرب ويجعله متشائمًا، غيرَ قادر على تحمّل الراحة، خاصة عندما نخجل من الاعتراف بالأسباب المؤدية إليه، وهو ما يقودنا أيضًا إلى المزيد من المعاناة والحدّ من رغباتنا وحبسها من دون السماح لها بالظهور إلى أن تضمحلّ. هذا يبعث على الكآبة والحزن، وآلافٍ من التقلّبات لعقل متخبّط، تقلّبات تتعش بولادة الأمل وتمرض مع موته. من هنا تأتي الحالةُ الذهنيّة لأولئك الذين يبغضون راحتهم، ويشتكون من عدم وجود شيء ليقوموا به، ويحسدون الآخرين بشدّة على إنجازاتهم. ولأن الخبثَ يترتب نتيجة للكسل والفراغ غير المُجدي فتراهم يتمنون الفشل لجميع مَنْ حولهم لأنهم لم يتمكّنوا من أن يطالوا النجاح. ثمّ من كرههم لنجاحات الآخرين وبأسهم من أنفسهم؛ يتملّكهم السخطُ تجاه حظوظهم، ويتدمرون من الوقت ويعودون إلى خمولهم واكتئابهم آخذين

مُعاناتهم كَمَا دةً للتفكير فيها بصمت إلى أن يسأموا من أنفسهم. ولأنَّ عقلَ الإنسان متقلِّب بطبيعته ويستمتع بالأنشطة؛ فإنَّ أيَّ فرصةٍ تأتي لتشتيت انتباهه وإثارته هي محطُّ ترحيب، إلا أنَّها تكون مفضَّلة أكثر لدى الشخصيات الضعيفة التي تستمتع بإرهاق نفسها بالأنشطة المجهدة.

حيث ترحَّب هذه الشخصيات ببعض الندوب، وتنتظر أن يتمَّ أذيتها من بعض الأيادي وتتلهَّف لتلمسها، هي كالمواضع التي تعاني من جربٍ كريبه وتتوق لأن تُحكَّ، ومن المنطلق ذاته سأقول إنَّ هذه العقول التي تهشمت رغباتها وضاعت قد أضحت كهذه الندوب المتقرَّحة، التي تجد متعتها في ازدياد تعبها ومعاناتها. فبعضُ الأشياء تمنحنا السعادة حتَّى وإن كانت تجلب معها بعضُ الألم أيضًا، كالتقلُّب من جانبٍ لم يتعب بعدُ إلى آخر، وتعديل وضعيَّة جسدك لتحافظ على انخفاض درجة حرارتك، أو كما قال هوميروس⁽¹⁾:

«يستلقي آخيل⁽²⁾ الآن على وجهه، ومن ثمَّ على ظهره، محاولاً أن يستقرَّ على وضعيَّة مختلفة، عبثاً يحاول ولا يتمكن من تحمُّل المعاناة لفترة طويلة، ولكنه يعالج نفسه بهذا الأرق». هكذا يجوب الإنسان الأرض، مسافراً في المساحات الشاسعة، يتجوَّ على امتداد هذه الشواطئ الغربية عنه، يجوب الأراضي والبحارَ المختلفة برفقة الأرق والضَّجر اللذين يجعلانه كارهاً لما حوله على الدَّوام. يقول لنفسه: «لنذهب الآن إلى كامبانيا». وعندما يسأم من الترف والرَّفاهية يقول: «لم لا أزور المناطق

(1) هوميروس: شاعرٌ ملحمي إغريقي أسطوري، يُعتقد أنَّه مؤلِّفُ الملحمتين الإغريقيتين؛ الإلياذة والأوديسة.

(2) آخيل أو آخيليس أحدُ الأبطال الأسطوريين في الميثولوجيا الإغريقية، كان له دورٌ كبير في حرب طروادة التي دارت أحداثها بين الإغريق وأهل طروادة. وهو البطل الأساسي في إلياذة هوميروس.

النائية وأكتشف غابات بروتيوم ولوكلنيا». مع ذلك وهو في وسط هذه البراري تغيبُ بعضُ البهجة التي كانت عيونه المدللة قد وجدت من خلالها الراحة من البؤس المٌضجر لهذه المناطق البشعة. «لنذهب إلى مدينة تارينتوم، ذات الميناء الشهير والشتاء المعتدل، إنَّها مكان غني بما يكفي بالنسبة إلى عدد سكانها الكبير، وغنيٌّ حتَّى بالموجودات الأثريَّة. لنمضي الآن في طريقنا إلى المدينة»، لقد مرَّ زمنٌ طويلٌ منذ أن سمعت آذانهم صخبَ التصفيق، والآن يتوقون ليستمتعوا بأيِّ شيء حتَّى بمشهدِ الدماء البشريَّة تراق أمامهم. فهم يذهبون في رحلةٍ تلو الأخرى ويستبدلون إطلالة بأخرى.

كما قال لوكريتيوس⁽¹⁾ ذات مرَّة: «وهكذا دائماً يفرُّ كلُّ شخص من نفسه». ولكن أينَ النهاية إن لم يهربوا من أنفسهم؟ إنَّهم يتعقَّبون أنفسهم ويطاردونها وكما لو كانت شريكتهُم المضجرة. لهذا علينا أن ندرك أنَّ مشاكلنا في الحياة ليست ذنبَ الأماكن التي نتواجد فيها بل هي ذنبنا نحن أنفسنا، نحن ضعفاء عندما يتعلَّق الأمرُ بتحمُّل أيِّ شيء. ولا نستطيع تحمُّل المعاناة أو الفرح أو حتَّى تحمُّل أنفسنا أو أيِّ شيء آخر لفتراتٍ طويلة. هذا الضعف قد قاد بعضَ الأشخاص إلى هلاكِهِم، فبسبب تغيير أهدافهم المستمرِّ ظلُّوا يجدون أنفسهم واقعين في نفس المسائل من دون أن يدعوا لأنفسهم متَّسعين للتجديد. فبدأوا يصبحون مُثقلين من الحياة والعالم بأسره، وبسبب ضعفهم تجاه انغماسهم بالملذات، برزت لديهم مشاعرٌ دفعتهُم إلى التساؤل: «إلى متى سأضطرُّ لمواجهة الأمور نفسها؟».

(1) تيتوس لوكريتيوس كاروس: فيلسوف وشاعرٌ روماني. نظم قصيدةً مطوَّلة دعاها «في طبيعة الأشياء» وقد وصف فيها خصائصَ المادة وطبيعة الذرات التي يتألَّف منها الكون، وتحدَّث عن أصل الإنسان والأحوال الجوية والزلازل والأمراض وغيرها.

إن أفضل طريقة للتخلص من الملل تبعاً لقول أئينودوروس⁽¹⁾ هو ملء وقتك بالأنشطة العملية للمجالات السياسية والمجتمع المدني. فبعض الأشخاص يقضون نهارهم في التشمس، وممارسة التمارين، والاهتمام بلياقتهم البدنية، وبالنسبة للرياضيين تكون أولويتهم القصوى هي إمضاء معظم وقتهم في تحسين قوتهم البدنية، الأمر الذي كرّسوا أنفسهم له دون غيره من الأمور؛ لذا بالنسبة إلى شخص مثلك يدرّب لُبّة لدخول غمار الحياة الاجتماعية فإنّ أفضل وسيلة لتطال ذلك هي الاستمرارية. فحين ينوي الشخص أن يكون مفيداً لأبناء مجتمعه وللآخرين، هو في نفس الوقت يتدرّب، ويقوم بعمل الخير إن كرّس نفسه جسداً وروحاً في سبيل خدمة المجتمع والأفراد. فكما يقول أئينودوروس: «لكن بما أنّ البشرية تمتلك طموحات تصل إلى حدّ الجنون، والكثير من المتهمين ظلماً يقبلون الحقّ إلى باطل، جاعلين المصداقية في خطر، ومحتّم أن تقع في حفرة الرفض لأن تعبر جسر القبول»، فعلينا بالفعل اعتزال الحياة الاجتماعية والسياسية، ومع ذلك فإنّ العقل المنفتح لديه حيّزٌ للأنشطة الحرّة ولو كانت على صعيد الحياة الشخصية. إنّ طاقة الأسود والحيوانات الأخرى تُحتوى بالأقفاص، ولكنّ الأمر ليس نفسه مع البشر، الذين يمكن رؤية أعظم إنجازاتهم داخل سور العزلة. مع ذلك دع شخصاً ما يعيد ترتيب أولوياته بشرط أن يكون موجوداً في المكان الذي ينبغي فيه وقت فراغه، فسيكون حينها جاهزاً لخدمة الأفراد، وحتى البشرية بعقله وكمالاته ومشورته. إنّ خدمة الدولة ليست حكراً على الأشخاص الذين يقدمون المرشحين لمنصب ما، ويدافعون عن الناس في المحاكم، ويدلون بأصواتهم للسلم وللحرب، فكل شخص يعلم الصغار ويزرع الفضيلة

(1) ائينودوروس: مؤرخ وفيلسوف.

في عقولهم (ونحن نعاني من نقص كبير لهذه الفئة من المعلمين)، والذين يقيّدون هؤلاء ممّن يركضون وراء الثروة والترّف، أو على الأقلّ يبطّون من اندفاعهم، هؤلاء الأشخاص أيضًا يقومون بخدمة المجتمع ولو لم يكن ذلك في العلن.

هل يمكنك تصوّر أنّ الفائدة التي تأتي ممّن يحملون لقب بريطور⁽¹⁾ الذين يحملون القضايا بين الأجانب والمواطنين عبر النظر في الطعون التي حكم بها القاضي؛ هي أكثر من التي تأتي من هؤلاء الذين يتحدثون عن طبيعة العدالة والصبر والشجاعة والتقوى، وحتى ازدياد الموت ومعرفة الآلهة ونعمة العقيدة السليمة؟ لهذا إن قمتَ بانتشال الوقت الذي أخذته من واجباتك العامة وأدرجته في وقت دراستك فلن تكون قد تهربت أو تخلّيت عن مهامك. فالجنديّ ليس فقط من يقف في أرض المعركة يدافع عن يمينه وعن شماله، بل أيضًا من يحرس البوابات ومَن يحرس مستودعات الأسلحة (العمل الذي هو أقلّ خطورة، ولكنه ذو أهمية)، فهذه المهام حتّى ولو كانت لا تريق الدماء فهي تعتبر أيضًا من الخدمات العسكرية. إذا ما كرّست نفسك للدراسة ستتحاشى ملل الحياة، ولن تجد نفسك جالسًا تنتظر قدوم الليل لأنك ستمتّ النهار، لن تكون عبثًا على نفسك ولا عديم الجدوى بالنسبة إلى الآخرين، وستجد أنّك تجذب إليك الكثير من الأصدقاء، ونخبة الناس سيتجمعون حولك لأنّ الفضيلة حتّى ولو كانت مبهمّة فهي لا تتوازي بنفسها أبدًا، بل تثبت وجودها بدليل واضح، وأيُّ شخص جدير بها سوف يتبع أثرها. ولكن إن تجنّبنا الانخراط بالمجتمع وتخلّينا عن البشر وعشنا لأنفسنا وحيدين؛

(1) البريتور: لقبٌ أعطته حكومة روما القديمة إلى بعض قادة الجيش والولاة المنتخبين لديها.

فإنَّ هذه العزلة المجرّدة من أيِّ اهتمام ستقود إلى سُحِّ في الأنشطة النافعة. يجب علينا البدءُ بإنشاء بعض المباني وهدم البعض الآخر، وبناء السدود، وإجراء المياه في قنوات صناعيّة، وإهدار الوقت الذي منحنا إيّاه الطبيعة، فبعضنا يستخدم هذا الأخيرَ باعتدال، والبعض الآخر يقوم بهدره، البعض يبذره بشكل يمكن حسابه وشرحه، والبعض الآخر لا يعتدل فيه حتّى لا يبقى منه سوى النتائج المخزية فقط. ففي معظم الأحيان لا يملك الرّجل المُسن دليلًا على طول حياته سوى سنّه».

يبدو لي يا عزيزي سيريونوس أنّ أئينودوروس قد خضع بسهولة للوقت، وانسحبَ بسرعة كبيرة. لا أنكر أنّ على المرء أن يضحّي أحيانًا، ولكن بشكل تدرّيجيّ، وهو متمسك بمبادئنا وشرّفنا كجنود، فالذين لا يلقون بأسلحتهم أثناء مُوافقتهم على شروط العدوّ يكونون آمنين، ويحوزون احترامًا أكبر. هذه هي الفضيلةُ في نظري، وهذا ما على أتباع الفضيلة فعله. إن استطاع القدرُ أن يرفع راية نصره ويحرم شخصًا من طريقته في إنجاز أعماله؛ فلا يجب على هذا الأخير أن يستسلم مباشرةً ويثبت في مكانه، ملقيًا سلاحه وباحثًا عن مكان للاختباء (وكانَّ القدرُ لن يجده)، بل عليه أن يتقدّم إلى واجباته باعتدال وعقلانيّة ويختار بحذر شيئًا يمكنه من خدمة وطنه. على اعتبار أنّه لا يستطيع أن يصبح جنديًا، فليقدّم إلى مكاتب الشؤون العامّة. وإن كان عليه أن يعيش حياة خاصّة فليصبح محاميًا. وإن كان محكومًا بالصمت فليساعد أشقائه المواطنين بدعمهم سرًّا. وعلى فرض أنّ من الخطر عليه التواجد في المؤتمرات فليلعب في الاجتماعات الخاصّة داخل المنازل، وفي الحفلات، وعلى مواعيد العشاء؛ دورَ صديق وفيّ، وصحبة ممتعة، وصاحب وليمة هادئ ورزين. وعلى فرض أنّه لم يعد يمتلك واجبات المواطن فليقم بواجبات الإنسان. لقد رفضنا حبس أنفسنا داخل أسوار مدينة واحدة بروح متغترسة،

وخرجنا لتعامل مع الأرض بأكملها وادّعينا بأنّ العالم بأسره هو دولتنا، لهذا السبب قد نعطي فضيلتنا مجالاً أوسع للتحرك. على فرض أنّه تمّ عزلك عن العمل في مكتب قضائيّ، ومنعت عن إلقاء الخطابات، وغلق في وجهك بابُ الترشيح للانتخابات، فكّر في كلّ الأماكن الشاسعة التي تقبع خلفك وعددِ السكّان المَهول الذي فيها، لن تجد أبداً مكاناً كبيراً للغاية وممنوعاً عليك من دون أن يوجد مكانٌ أكبر منه مفتوح أمامك. اعلم أنّ ذلك ليس خطأك بالكامل، على سبيل المثال: إن كنت لا تريد أن تتولّى منصباً في مكتبٍ عامٍّ إلا إن كان هذا المنصب هو مستشاراً أو مديرًا تنفيذياً أو نائباً. وإذا ما افترضنا أنّك لا ترغب أن تخدم في الجيش برتبة جنرال أو أطربون، حتّى ولو تمّ تعيين آخرين في الخطوط الأمامية وأتى بك نصيبك إلى الصفوف الخلفيّة، فعليك ممارسة دورك هناك كجنديّ بصوتك وتشجيعاتك وروحك الحماسيّة، وأن تكون خيرَ مثالٍ لمن حولك، حتّى ولو وجد أحدهم نفسه مبتور اليدين فما زال بإمكانه أن يلعب دوراً بالوقوف بحزم، ورفع معنويات من حوله. عليك أن تقوم بأعمال كهذه: كأن يقوم القدرُ بإبعادك عن أداء دور قياديّ مهمّ في العلن، فتظلّ واقفاً بثبات تشجّع من حولك وتشحذ هممهم، وإن حاول أحدهم إسكاتك ابقَ ثابتاً مكانك وساعد ولو بصمتك. خدمة المواطنين الصالحين لم تكن يوماً بلا جدوى: أن ندرك بأنّ شخصاً يساعد بتعايره وإيائة من رأسه وصمت متعنّت وحتّى في مشيته، يمنحنا شعوراً جيّداً تماماً كبعض العقاقير والموادّ التي نشعر بأثرها نتيجةً لانطباعنا الذاتيّ عنها من دون أن نتناولها أو نشمّمها أو حتّى أن نلمسها، هكذا تنشر الفضيلةُ إيجابيّاتها من مسافةٍ بعيدة ولو كانت مُحْتَبَةً. سواءً كانت تتجول علناً وتقوم بأعمالٍ مُباحة أو كانت تظهرُ في الشقاء الذي يجبرها على رفع أشرعتها لإبطائها، وسواءً كانت مقيّدة وخامدة وصامتة ضمن مساحات ضيقة أو كانت

مرثية وواضحة، ففي جميع الأحوال ستلعب دوراً فعالاً وجيداً. لماذا ترى الشخص الذي يعيش فراغاً لا يعطي مثلاً قيماً؟ إن أفضل طريق يمكن أن يسلكه المرء هو الجمع ما بين راحته وبعض الأنشطة المفيدة، وحتى عندما تكون الحياة المفعمة بالطاقة والحيوية صعبة بسبب العراقيل وقلة الفرص أو بسبب وضع البلاد التي يوجد الشخص فيها لن تكون جميع الطرق مسدودة بشكلٍ كامل أمام من يبحث عن أحد أشكال العمل الشريف.

هل يمكن أن توجد مدينة أنتعس من مدينة أثينا، التي مُزقت من قبل الطغاة الثلاثين؟ لقد قاموا بقتل ألفٍ وثلاثمائة من نخب المواطنين، ولم ينته الأمر عند هذا، بل إن وحشيتهم قد شجعت الآخرين على انتهاجها. في المدينة التي تحوي صخرة الأريوباجوس⁽¹⁾، التقت لجنة محاكمة من أعلى مراتب القدسية ومجلس الشيوخ الروماني ومجلس شعبيّ مشابه لمجلس الشيوخ بمجموعة من الجلادين الأشرار، حيث التقوا يوماً وعجّ مجلس الشيوخ المشثوم بالطغاة، هل يمكن أن تنعم مدينة بالسلام في ظل وجود كل هؤلاء الطغاة؟!

لم يكن هناك حتى بصيص أمل باستعادة الحرية أو فرصة واضحة للثأر من أشرار بمثل نفوذهم، من أين يمكن أن يجد هذا البلد البائس رجالاً مثل هارموديس⁽²⁾؟ ومع ذلك في خضم هذا كله كان سقراط يواسي الآباء الحزينين في المدينة ويشجع من يتسوا من الحياة فيها، ويوتخ الأثرياء الذين هم الآن يخشون على ثروتهم أكثر من خشيتهم من توبتهم

(1) صخرة الأريوباجوس: هي «صخرة آرس»، تقع شمال غرب أكربوليس، والتي كانت في العصور الكلاسيكية مقر محكمة الاستئناف العليا للقضايا الجنائية والمدنية في أثينا.

(2) هارموديس: شخصيّة من أثينا القديمة، عُرف هو وعشيقه أرسوجياتين باسم قاتلي الطغاة بعد أن قتلوا الطاغية هيبارخوس ليصبح هذا الفعل رمزاً بارزاً للديمقراطية لدى الأثينيين القدماء.

التأخرة بسبب شجعهم، أما بالنسبة لمن احتدوا به فقد كان كوحى يسير بينهم، وروحاً حرّة بين ثلاثين سيّد. مع ذلك كان هو الرّجل الذي حكمت عليه أئينا بالسجن، حيث إنّ الحرّية لم تطق أن تمنح نفسها لرجل يسخر من مجموعة طغاة على العلن. هنا نستطيع فهم كيف أنّه يمكن للرجل الحكيم أن يثبت حضوره ويؤثر على غيره في دولة تسودها الأزمات، فالدولة الغنيّة الناجحة هي التي ينتشر فيها الحسد والطمع، وتطوف في أرجائها آلاف الشرور غير الإنسانيّة وتحكمها. لهذا بقدر ما يأذن لنا نهج الدولة والقدر يمكننا أن نزيد أو نحدّ من أنشطتنا، ولكن في جميع الأحوال علينا أن نتحرّك، وألا نسمح للخوف بأن يشلّ حركتنا. في الحقيقة، إنّ الشخص المهدّد بالخطر من جميع الجهات (الأسلحة وصيليل الأغلال من حوله)، سيثبت أنّ هذا الخطر لن يستطيع إيذاء ولا قتل شجاعته؛ لأنّ الحفاظ على النفس لا يستلزم قمعها. في الحقيقة، اعتقد بأنّ كيوريوس دينتاتوس⁽¹⁾ اعتاد أن يقول بأنّه يفضّل الموت الحقيقيّ على العيش كالموتى لأنّ الرّعب الحقيقيّ هو أن نحيا بجسد فنيت روحه، ولكن إن حدث وعشت حياة يصعب عليك فيها التأقلم مع المجتمع، فستضطرّ لأن تبحث عن المزيد من وقت الراحة، وأن تقرأ أو تكتب أعمالاً أدبيّة، كمن يبحث عن مكان آمن ليرسو فيه أحياناً أثناء ذهابه في رحلة ضمن بحر هائج تسوده العواصف، وألا تدع الحياة الاجتماعيّة تقوم بإبعادك، بل تقوم أنت طواعيّة بالإفلات منها.

في جميع الأحوال، علينا أولاً أن نلقي نظرة على أنفسنا، ثم على الأنشطة التي سنقوم بها، بعد ذلك على الأشخاص الذين نقوم بهذه المحاولات لأجلهم ومعهم.

(1) مانيوس كوريوس دينتاتوس: جنرال عُرف بإنهائه حروب سامنية، وبأعماله البطوليّة خلال الحرب البيروسية.

فوق كل شيء، من المهم أن نعلم قدر أنفسنا لأننا عادة ما نبالغ في تقدير إمكاناتنا، فيحزن أحدهم لأنه كان واثقاً من فصاحته، وآخر يطمح ليزيد من ثروته أكثر مما هي عليه، وغيره يضغط على جسده الضعيف بالعمل المضني، بعض الأشخاص يمنعهم خجلهم الزائد من الانخراط في العمل السياسي الذي يتطلب من الشخص أن يظهر بجرأة، وآخرون من شدة جرأتهم لا يتناسبون مع حياة المحاكم، والبعض لا يستطيعون السيطرة على غضبهم وقد تدفعهم انفعالاتهم ومشاعرهم لاستخدام لغة فظة ومتهورة، والبعض الآخر لا يستطيعون التحكم بخفة دمهم وهذا ليس بذكاء منهم، بل بتهور مندفع وخطر. بالنسبة لهؤلاء جميعهم يكون الانسحاب مناسباً ويدرُ نفعاً أكثر من النشاط الاجتماعي. إنَّ الفطرة العاطفية وغير الصبورة لديهم عليها تجنُّب الاستفزاز الناتج عن الصراحة حتى لا تتسبب شفافتها بالمتاعب لهم.

بعد ذلك علينا تقييم الأشياء التي ننوي فعلها حقيقةً ونوائم طاقتنا مع ما سنأخذه على عاتقنا؛ لأنَّ الإنسان عليه دائماً أن يكون أقوى من المهمة الموكلة إليه، فالحمل الذي يكون أكبر من صاحبه سوف يكسره بلا شك. وخلافاً لذلك فإنَّ بعض المهام ليست عظيمة بقدر ما تقود لمهام أخرى، فعلينا تجنُّب هذه الأمور التي يتولَّد عنها مهام متشعبة ومعقدة، وألا نحاول أن نصل إلى شيء لن نتمكن لاحقاً من الانسحاب منه بسهولة. عليك اختيار المهام التي تستطيع إنجازها أو على الأقل التي تأمل أن تنجزها، وتتجنَّب تلك التي تزداد حجماً وتعقيداً كلما تقدّمت في إنجازها ولا تنتهي حيث أردت لها أن تنتهي. مكتبة سر من قرأ

علينا أن نكون حريصينَ في اختيار الأشخاص من حولنا، خصوصًا عندما نقرّر إذا ما كانوا يستحقّون منا تكريسَ جزءٍ من حياتنا لأجلهم، سواءً كانت هذه التّضحية تشكّل فارقًا لديهم أم لا؛ لأنّ بعض الأشخاص يجعلوننا ندفع ثمن هذه الخدمات التي نقدّمها لهم. يقول أثنودوروس إنّهُ لن يذهب حتّى لتناول العشاء مع شخصٍ لن يشعر بأنه مدينٌ له بسببِ ذلك. أعتقد بأنك ستدرك كم كان أقلّ ميلًا إلى زيارة هؤلاء الذين يردّون خدمات أصدقائهم بوجبة، ويعدّون هذه الخدمات هبةً مقدّمة لهم، كما لو أنّهم يبالبغون بإظهار فخرهم برّد الجميل، أبعدوا عنهم الشهود والجموع، وستروهم لا يجدون أيّ متعة في التباهي لوحدهم.

عليك أن ترى إن كانت طبيعتك تتلاءم مع الأنشطة العمليّة أو الدراسات الهادئة والتأمّل، وأن تذهب في الاتجاه الذي تمليه عليك طبيعتك وقدراتك. قام سقراط بسحب أفوروس⁽¹⁾ من مجالس المناقشات رغمًا عنه ظنًا منه أنّه سيرعُ بكتابة التاريخ. إنّ الميول الفطريّ لدى الشخص لا يستجيب للإكراه، فنحن كالسمك الصّغير الذي يحاول أن يصعد سبيل الحياة عكس تيار الطبيعة.

لا شيء يثلج الصدرَ بقدر الصداقة المليئة بالحبّ والوفاء، فلا يوجد نعمة أكبر من أن تجد قلبًا مستعدًا لسماع أسرارك والتكتم عليها، ولا تخشى مشاركة معرفتك بالأشياء معه بدلًا من الاحتفاظ بها لنفسك، قلبًا محادثته تداوي قلقك، ونصيحته تساعدك على أن تعقد رأيك، ويزيل عنك الحزنَ ببهجته، ويشعرك بالبهجة بمجرد النظر إليه. فلتتأكد من اختيار مَنْ هم أبعد ما يكونون عن الشهوات الخبيثة لأنّ الرذائل تنتشر بشكلٍ مأكبرٍ وخفي، وهؤلاء القريبون منها هم عرضةٌ لهذا الهجوم

(1) أفوروس: مؤرخ وكاتب.

بمجرد الاحتكاك بها. ونتيجة لذلك، كما يحصل أثناء انتشار أيّ وباء، علينا أن نتجنب الجلوس بجوار هؤلاء ممن قد أصيبت أجسادهم بالمرض، وتظهر عليهم أعراض كالحمى لأننا بهذا سنخاطر بأنفسنا وسنعاني لمجرد تنفسهم بالقرب منا. لهذا عندما نختار أصدقاءنا بناءً على شخصياتهم التي نراها يجب علينا أن نختار الأقل انحرافاً؛ فاختلاط الشخص السليم بشخص مُصاب هو ما يؤدي لانتشار المرض، ولكن هذا لا يعني أنني أنك عن أتباع ومصاحبة سوى الأشخاص الحكيمين، فأين ستجد ذلك الشخص الذي نسعى للعثور عليه منذ قرون؟ بدلاً من السعي للخيار المثالي علينا التعايش مع الخيار الأقل سوءاً. نادراً ما ستجد أن الاختيار الذي يجلب لك أكثر مقدار من السعادة متاحاً أمامك عندما تبحث عن الرجال الصالحين بين الأفلاطونيين والكسينوفونيين وكلّ من هم من ذرية سقراط، أو إن كان باستطاعتك الإبحار بذهنك والرسوّ به في حقبة كاتو الذي أنشأ العديد من الرجال الذين استحقوا أن يولدوا في عصره، (وأنشأ أيضاً من كانوا الأسوأ على مرّ الزمن، الذين ارتكبوا جرائم شنيعة لأنّ وجود الفريقين كان مهمّاً ليحظى كاتو بهذا التقدير؛ فقد احتاج وجود الأخيار لينال استحسانهم، والأشرار ليثبت قوّته وسلطانه). لكن مع انقراض الأشخاص الطيبين في هذا الزمن عليك أن تكون أقلّ انتقائية في اختيارك، ومع ذلك فلتبتعد على وجه الخصوص عن المتشائمين، وكثيري النواح، وأولئك الذين يتمسكون بأيّ ذريعة ليشتكوا. بالرغم من أنّ ولاء الشخص وعطفه ربّما لا يكونان موضع شكّ إلا إنّ الصاحب عندما يكون كثير الانفعال والتدثر على كلّ صغيرة وكبيرة يكون مصدرًا للقلق وعدم الراحة.

دَعْنَا نَحِيدَ النِّقَاشَ إِلَى المَمْتَلِكَاتِ الخَاصَّةِ، أعْظَمَ مَصْدِرٍ لِلبُؤْسِ البَشَرِيِّ، لِأَنَّهُ إِنْ قَمِتَ بِمُقَارَنَةِ كُلِّ الأَشْيَاءِ الأُخْرَى الَّتِي نَعَانِي بِسَبَبِهَا، كَالْمَوْتِ، المَرَضِ، المَخَافِ، الرِّغْبَاتِ، تَحْمُلِ الآلَامِ وَالكَدِّ، بِالشَّرُورِ الَّتِي يَجْلِبُهَا المَالُ مَعَهُ؛ فَإِنَّ هَذِهِ الأَخِيرَةَ تَفُوقُ غَيْرَهَا بِكَثِيرٍ. لِذَلِكَ يَجِبُ أَنْ نَضَعَ فِي عَيْنِ الِاعْتِبَارِ كَمْ أَنَّ أَلَمَ عَدَمِ امْتِلَاكِ المَالِ أَخْفٌ مِنْ أَلَمِ خَسَارَتِهِ، وَسَنَدْرِكُ أَنَّهُ كَلَّمَا نَضَبْتَ مِنَ الفَقْرِ أَلْمُورُ قَلَّ العَذَابُ الَّذِي يَمْكَنُ أَنْ يَسْبِبَهُ لَنَا نَتِيجَةً فِقدَانِهَا. فَأَنْتِ مَخْطِئٌ إِذَا كُنْتِ تَعْتَقِدُ أَنَّ المَعَانَاةَ تَكُونُ أَكْثَرَ وَأَبْطَشَ عَلَى الأَغْنِيَاءِ؛ فَأَلْمُ الجِرَاحِ هُوَ ذَاتِهِ سِوَاءِ كَانِ فِي أَكْبَرِ الأَجْسَامِ وَأَصْغَرِهَا. وَيَلْحَظُ بِيُونَ عَلَى نَحْوِ دَقِيقٍ أَنَّ انْتِزَاعَ الشَّعْرِ يُوْذِي الصَّلْعَانَ بِقَدْرِ مَا يُوْذِي مَنْ يَمْتَلِكُونَ شَعْرًا. يَمْكَنُكَ تَوْضِيحُ نَفْسِ النِّقْطَةِ بِأَنَّ الأَغْنِيَاءَ وَالفُقَرَاءَ يَعْانُونَ مِنَ نَفْسِ الضِّيْقِ؛ كَلَا المَجْمُوعَتَيْنِ تَتَشَبَّهَانِ بِأَمْوَالِهِمَا، وَيَعْانِيَانِ إِنْ افْتَرَقَتَا عَنْهَا. لَكِنْ كَمَا ذَكَرْتُ سَابِقًا إِنَّهُ مِنَ الأَسْهَلِ وَالأَبْسَطِ أَنْ يَتَحَمَّلَ المَرءُ عَدَمَ امْتِلَاكِهَ لِشَيْءٍ مِنْ أَنْ يَتَحَمَّلَ خَسَارَتَهُ لَهُ، لِذَلِكَ سَتَلْحَظُ أَنَّ أَوْلَئِكَ النَّاسِ الَّذِينَ لَمْ يَخْتَرَهُمُ القَدْرُ قَطَّ هُمْ أَكْثَرُ سَعَادَةٍ مِنْ أَوْلَئِكَ الَّذِينَ هَجَرَهُمْ.

ديوجانس⁽¹⁾، ذَلِكَ الرَّجُلُ ذُو الرُّوحِ العَظِيمَةِ أَدْرَكَ هَذَا، وَتَحَصَّنَ لئَلَّا يُوْخَذَ مِنْهُ شَيْءٌ. يَمْكَنُكَ أَنْ تَطْلُقُوا عَلَى هَذِهِ الحَالَةِ اسْمَ الفَقْرِ، وَالحِرْمَانِ، وَالعُوزِ، وَأَنْ تَعْطُوا هَذَا التَّحَرُّرَ مِنَ الاكْتِرَاثِ أَيَّ اسْمٍ تُخْزِ تَحِبُّونَهُ، لَنْ أَعْتَبَرَ هَذَا الرَّجُلَ سَعِيدًا إِذَا وَجَدْتُمْ لِي شَخْصًا آخَرَ لَيْسَ لَدَيْهِ مَا يَخْسِرُهُ.

(1) ديوجانس الكلبي: فيلسوف يوناني، وأحد مؤسسي المدرسة الكليية الأوائل. ولد في سينوب بتركيا، ودرس في أثينا على يد الفيلسوف أنتيستينس.

إن لم أكن مخطئاً أن تكون الوحيد الذي لا يمكن أن يؤذى، هو منصبٌ ملكي بين جميع البخلاء، والغشاشين، واللصوص والخاطفين. إذا كان لدى أي شخص أية شكوك حول سعادة ديوجانس، فيمكن أن يكون لديه أيضاً شكوكٌ حول حالة الآلهة الخالدة، سواء كانوا يعيشون بتعاسةٍ لعدم امتلاكهم عقارات أو حدائق أو مزارع باهظة الثمن تؤجر للمستأجرين الأجانب، وإيرادات كبيرة من الفوائد في الاجتماعات العلنية العامة. أفلا تحجلون من أنفسكم جميعاً أيها المغرمون بالثروة؟ تعالوا وانظروا إلى السماوات؛ سترون الآلهة مجردة من الممتلكات وتهب كل شيء رغم أنها لا تمتلك شيئاً. هل تعتقد أن الرجل الذي جرد نفسه من كل هبات الحظ هو فقير؟ أم أنه يشبه الآلهة الخالدة؟ لم يخجل ديميتريوس -رجل بومبيوس المحرر من العبودية- من كونه أغنى من بومبيوس، هل ستقول إنه كان أكثر سعادة؟ لقد اعتاد على إحصاء عبيده يومياً كالجنرال الذي يراجع جيشه، حيث كان يظن في السابق أنه من الثراء أن يكون لديك اثنان من العبيد وزنزارة فسيحة. ومع ذلك، عندما قيل لديوجانس إن عبده الوحيد قد هرب لم يعتقد أن الأمر يستحق عناء استعادته. قال: «سيكون الأمر مهيناً إذا كان بإمكان مانيس⁽¹⁾ أن يعيش من دون ديوجانس، وليس ديوجانس من دون مانيس». أعتقد أن ما كان يعنيه هو: «اهتمّ بشئونك الخاصة أيها القدر؛ لا علاقة لديوجانس بك الآن. لقد هرب عبدي، لا.. إنه أنا الذي تحررت». إن بيتاً من العبيد يحتاج إلى الكسوة والطعام، فهناك الكثير من بطون المخلوقات الجائعة جداً التي يجب الاعتناء بها، شراء الثياب لها، وحمايتها من أيدي اللصوص، وتقديم الخدمات لزرع الدُموع والبلاء. كم أن الرجل الذي لا يدين بشيء لأحد

(1) مانيس: ابنُ غايا وزيوس، وهو الإله المسئول عن أرواح الأموات المقربين عند الرومان القدماء.

هو أكثرُ سعادةً من الجميع، عدا مَنْ يمتلك القدرة على رفض رغباتِ نفسه بسهولة! لكن نظرًا لأننا لا نملك قوَّة الإرادة هذه فيجب علينا على الأقلُّ أن نقلِّص مُمتلكاتنا حتَّى نصبح أقلَّ عُرضة لتقلُّبات القدر. إنَّ الدروعَ التي يرتديها الرِّجال خلالَ الحرب وتكون على مَقاسهم هي أفضل من التي تبرز خارجها أجسادهم، وتعرِّض مُرتديها للجراح من كلِّ جانب. وبالتالي فإنَّ المبلغ المثاليَّ من المال هو ذلك الذي لا يضعُ مالكَه ضمنَ نطاق الفقر ولا يجعله فوقه بكثير.

علاوةً على ذلك، سنكون راضين عن هذا الحدِّ إن تدرَّبنا سابقًا على التوفير، الأمرُ الذي لا يكون من دونهُ أيُّ مقدار من الثروة كافيًا، ويكون فيه أيُّ مبلغ فائضٍ عن حاجته؛ خاصَّةً إذا استخدمته كعلاجٍ ليديك، فالفقرُ بإمكانه أن يتحوَّل إلى ثراءٍ عبرَ التوفير. دعنا نعتادُ على نبذ التباهي، وقياس الأشياء بجودة عملها لا بمظهرها. دع الطعام يزيل الجوعَ والشراب يروي العطش، والجنس يشبع الرِّغبات؛ علينا أن نتعلَّم الاعتمادَ على أجسادنا، وأن نعدِّل أسلوبَ لباسنا وطريقة عيشنا ليس على غرارِ الأنماط العصرية وإنَّما على غرارِ ألبسة أجدادنا التقليديَّة. كما علينا تعلُّم كيف نضبط أنفسنا بشكل جيِّد، وأن نكبِّح الرِّفاهيَّة، وأن نعتدل في طموحنا، وأن نخفِّف من حدَّة الغضب، وننظرَ للفقر من دون تحامل، وأن نقتصد حتَّى وإن كان الكثيرون يشعرون بالحجل من القيام بذلك، وأن نطبِّق لاحتياجاتنا الطبيعيَّة العلاجات زهيدة الثمن، وأن نكبِّح بالأغلال آمالًا غير محدودة وعقلًا مهووسًا بالمستقبل، وأن نسعى إلى اكتسابِ الغنى من أنفسنا بدلًا من القدر. فمن غيرِ المُمكن صدُّ جميع كوارث الحياة المتنوِّعة والمجحفة، فرياح العواصف لن تستمرَّ في مهاجمة أولئك الذين ينشرونَ أشرعتهم بطموح. يجب أن نقيدَ أنشطتنا حتَّى لا تصيب أسلحةُ القدر هدفها، ولهذا السبب ثبتَ أنَّ المنفى والمصائب

تفيدنا، وأنَّ الكوارث الأكبر حجماً تعالجها كوارثُ أصغر منها. عندما يكون العقل أقلَّ قابليَّةً للتوجيه، ولا يمكن شفاؤه بالوسائل قليلة التطرّف، لماذا لا تساعده جرعة من الفقر والعار والدَّمار العام، مواجهة الشرِّ بالشرِّ؟ فلنتعوَّد إذاً على تناول الطعام دون حشيدٍ من النَّاس، وأن نكونَ عبيدًا لعدد أقلَّ من العبيد، أن نشترى الثياب لغرضها المناسب، وأن نعيشَ في مساكن أصغر حجماً. ليس فقط في الجري ومسابقات السيرك، ولكن في سباق حياتنا هذا علينا ألا نخرج عن المسار الداخلي.

وحتى في دراساتنا، حيث يكون الإنفاق أكثرَ قيمة، فإنَّ تبريره يتوقف على اعتداله. فما فائدة وجود عددٍ لا يُحصى من الكتب والمكتبات التي نادراً ما يقرأ صاحبُها عناوينها؟ إنَّ الكمَّ الهائل من الكتب يثقل كاهلَ الطالب من دون أن يثقفه، فمن الأفضل أن تخرَّس نفسك لقلَّة من المؤلفين على أن تتوه بين كثيرين. تمَّ حرقُ أربعين ألفَ كتابٍ في مكتبة الإسكندرية. ويمكن لبعض الأشخاص أن يمتدحوا الأمرَ باعتباره نصباً فخماً يدلُّ على ثروة العائلة الملكية، مثل تيتوس ليفيوس⁽¹⁾ الذي يعتبرها إنجازاً ملحوظاً للذوق الرفيع للملوك وتفانيهم. حقيقةً لم يكن ذوقاً جيِّداً أو تفانياً بل كان انغماساً علمياً في الذات؛ في الواقع لم يكن علمياً حتى، بما أنهم جمعوا الكتب لا من أجل المعرفة بل من أجل الاستعراض. وبنفس الطريقة ستجد أنَّ العديد من النَّاس الذين يفتخرون حتى للثقافة العامَّة لا يحتفظون بالكتب للتعلم وإنَّما كزينةٍ لغرف طعامهم. لذا يجب علينا شراء ما يكفي من الكتب للاستعمال وليس للتزيين فحسب. أنت تقول:

(1) تيتوس ليفيوس: أحد أشهر المؤرخين الرومان، أمضى أكثر من 40 عاماً من حياته في إنجاز كتابه (التاريخ منذ تأسيس المدينة)، الذي يتناول التاريخ الروماني منذ تأسيس مدينة روما حتى وفاة دروزوس عام 9 ق م. وقد كتب ليفيوس هذا العمل في 142 كتاباً، ولم يتبق منها سوى 35.

«لكنّ هذا هو إنفاقٌ أشرف من تبديد المال على البرونزيّات الكورنثية⁽¹⁾ والصور». لكنّ الإفراط في أيّ مجال هو أمرٌ مُستهجن، فكيف يمكنك أن تغفّر لرجل يجمع الكتب ذات الأغلفة المصنوعة من خشب السترون والعاج، ويقتني أعمالَ مؤلّفين غير معروفين أو من الدرجة الثالثة، ثمّ يجلس متثابراً بين آلاف الكتب التي يمتلكها مستمتعاً كثيراً بمظهر مجلّداته وعلاماتها؟ وهكذا ستري أنّ الرّجال العاطلين عن العمل يمتلكون مجموعاتٍ من الخطابات والسجّلات في صناديق مكدّسة فوق بعضها لتطال السّقف؛ لأنّه في أيّامنا هذه أصبحت حتّى المكتبة الأنيقة زينةً أساسيةً للمنزل إلى جانب الحّمّات الباردة والساخنة. أنا بالتأكيد أعذر النّاس على هذا الخطأ الناتج عن حبّهم المفرط للدراسة، ولكن هذه المجموعات من الأعمال العبقرية التي تبعثُ الإلهام في العقول، إضافةً إلى العديد من اللّوحات قد تم اقتناؤها جميعاً من أجل الزخرفة الجدارية الرّنانة ليس إلّا.

لكنّ ربّما تكون قد تورّطت في بعض المواقف الصعبة خلال الحياة، حيث قامت ظروف عامّة أو خاصّة بتضييق الخناق عليك على حين غرّة بطريقة لا يمكنك حلّها أو قطعها؛ يجب أن تفهم أنّ السجناء المقيدين يشعرون بثقل الأغلال على أرجلهم في البداية فقط، ومع مرور الوقت، حين يقرّرون ألا يقاوموا بل أن يتماشوا معها يتعلّمون من الضرورة أن يتحمّلوا بجلّد، ومن العادة أن يتحمّلوا بسهولة. في أيّ ظرفٍ من ظروف الحياة ستجد البهجة والرّاحة والملذّات إذا كنت مستعدّاً للتخفيف من مشاكلك وعدم السماح لها بإزعاجك. لن تجعلنا الطبيعة بأيّ حالٍ من

(1) كان البرونز الكورنثي المعروف أيضاً باسم نحاس كورنثي أو كورنثياكوم، سبيكة معدنيّة ذات قيمة عالية في العصور القديمة الكلاسيكية، يُعتقد أنّها سبيكةٌ من النحاس مع الذهب أو الفضة، رغم أنّه قد قيل أيضاً إنّها كانت مصنوعةً من البرونز ذي جودة عالية جدّاً، أو من نوعٍ من البرونز تمّ تصنيعه في كورينثوس.

الأحوال مدينين لها أكثر من ذي قبل، لأنها تدرك وتفهم الأحران التي ولدنا بها، ابتكرت مفهوم العادة لتهدئ كوارثنا، وبسرعة كبيرة تجعلنا نعتاد على أسوأ المصائب. ليس باستطاعة أحد منا أن يتحمل محنة دائمة إذا استمرت بنفس القوة التي كانت عليها عندما أصابتنا أول مرة. جميعنا مرتبطون بالقدر، بعضنا بسلسلة ذهبيّة فضفاضة، وبعضنا الآخر بسلسلة مصنوعة من معدن رديء.. لكن ما أهميّة هذا الأمر؟ نحن جميعًا محتجزون في نفس الأسر، وأولئك الذين قيّدوا الآخرين هم أنفسهم مُقيّدون، إلا إن كنت تعتقد ربّما أنّ السلسلة في اليد اليسرى أخفّ وزنًا. أحدهم مقيّد بمنصبه الرّفيع وآخر بالثروة؛ أن تولد بنسب رفيع يثقل كاهل البعض، كما أن النسب المتواضع يثقل كاهل البعض الآخر، ينحني البعض تحت حكم رجال آخرين، والبعض الآخر تحت حكم نفسه، البعض محجوز في مكان واحد بسبب النفي، والبعض الآخر بسبب الكهنوتيّة، فالحياة كلّها مبنية على العبوديّة. لذلك عليك أن تعتاد على ظروفك، وألا تتذمّر منها قدر الإمكان، وأن تغتنم أيّ فائدة لديها لتقدّمها، لا يوجد ظرف مرير لدرجة ألا يستطيع أيّ عقل متوازن أن يجد جانبًا مواساةً فيه. في أغلب الأوقات المناطق الصغيرة يمكن أن تقسم بمهارة لتوفير مساحات من أجل العديد من الاستخدامات والترتبات، كما أنّه بإمكانها أن تجعل قطعة صغيرة من الأرض مكانًا قابلاً للعيش فيه. أمعن التفكير في أوقات المحن والصّعوبات؛ يمكن تخفيف شدة الظروف القاسية، كما يمكن توسيع النكبات المقيّدة، والثقيلة منها يمكن أن تصبح أخفّ إزرا على أولئك الذين يعرفون كيف يتحمّلونها، جانب أنّه ينبغي علينا ألا نبعث برغباتنا في مطاردات بعيدة، بل عوضًا عن ذلك علينا أن نسمح لها باكتشاف ما هو في مُتناول أيدينا، بما أنّها ليست مقيّدة بشكل كامل. الاستغناء عن هذه الأشياء -والتي هي مستحيلة وصعبة المنال-

يسمح لنا بملاحظة ما هو متوفر بسهولة ويعزز آمالنا، كما يساعدنا في إدراك أن الجميع على نفس القدر من التفاهة، من الخارج يختلفون في المظهر ولكن عديمي الجدوى بشكل موحد من الداخل. ودعنا لا نحسد أولئك الذين يقفون في مكانٍ أرفع. إنَّ ما يبدو ارتفاعات شاهقة هو في الواقع منحدرات. من جهةٍ أخرى، أولئك الذين قد وضعهم قدرٌ غيرٌ عادل في ظروفٍ عصيةٍ لديهم فرصة أكبر للحدِّ من كبريائهم في الأمور التي يفخرون بها، والتقليل من ثروتهم قدر ما يستطيعون ليصلوا إلى حدِّ متواضع. بالتأكيد هنالك الكثيرون ممن أُجبروا على التثبيت بالقمة لعدم قدرتهم على ضمان نزلوهم منها سالمين غير ساقطين؛ ولكن عليهم أن يقرّوا أن هذا بحد ذاته هو عبئهم الأعظم، وأنهم مجبرون أن يكونوا عبئًا على غيرهم أيضًا، فإنهم ليسوا رفيعي المستوى بقدر ما هم مُحَوِّزُونَ على قضبان حديدية. دعهم باسم العدالة واللطف والكرم يمحسون دفاعاتهم ضد الكوارث الآتية، أملين التثبيت بقشةٍ أكثر أمانًا. ولكن لا شيء يستطيع أن ينقذنا من هذه الذبذبات العقلية بكفاءة أكثر من ترويضنا لهذه الطموحات، وألا نسمح للقدر أن يختار ميعاد انتهائها، ولكن أن نختار بأنفسنا أن نتوقّف قبل ذلك بحدٍّ بعيد. باللجوء إلى هذه الطريقة سنحظى ببعض الأهداف من شأنها تحفيز العقل، وبكونها محدودة ومنضبطة فلن تقودنا إلى حالةٍ من عدم اليقين أو الفوضى في نهاية المطاف.

ما أقوله ينطبق على الأشخاص غير المثاليين والمبتدئين، وليس على الشخص الحكيم. فلا يوجد ما يرغمه على أن يمشي بتوتر أو بحذر؛ لأنَّ ما لديه من الثقة بالنفس يجعله لا يتردد من أن يقف بوجه القدر ولا ينحني له أبدًا. لا يملك سببًا يجعله يهابه؛ لأنه لا يرى المعاناة تقتصر على ممتلكاته ومكانته فقط، بل أيضًا على جسده، عيناه ويده، وكل ما يجعل الحياة كريمة، أضف لذلك نفسه ذاتها، ويعيش كما لو أنه قد كان

مُعَارًا لِنَفْسِهِ، وَمُحْتَمًا عَلَيْهِ أَنْ يُوْفِيَ دِينَهُ عِنْدَمَا يُطَلَّبُ مِنْهُ مِنْ دُونِ تَذَمُّرٍ. وَلَا يَنْظُرُ إِلَى نَفْسِهِ بِرِخْصٍ أَوْ إِهْمَالٍ، لِأَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَيْسَ مَلَكًا لِنَفْسِهِ، بَلْ سَيَتَوَخَّى الْحَذَرَ فِي جَمِيعِ الْمَوَاقِفِ وَيَتَصَرَّفُ بِإِخْلَاصٍ رَجُلٍ دِينٍ يُحْمِي مَا عَاهَدَ إِلَيْهِ. وَعِنْدَمَا يَجِينُ أَوْ أَنْ سَدَادَ دِينِهِ لَنْ يَلْقَى بِاللُّومِ عَلَى الْقَدْرِ، بَلْ سَيَقُولُ: «إِنِّي لَشَاكِرٌّ عَلَى مَا أَمْتَلَكْتَ وَحَظَيْتِ. اعْتَنَيْتِ بِمَمْتَلِكَاتِكَ بِغِيَّةٍ مُنْفَعَتِي، وَبِأَمْرِ مِنْكَ أَعْطَيْتَهَا وَأَسَلَّمَهَا بِسُرُورٍ وَنِيَّةٍ حَسَنَةٍ. وَإِنْ أَرَدْتِ اتِّهَامِي عَلَى شَيْءٍ آخَرَ لَكَ فَسَوْفَ أَعْتَنِي بِهِ بِخَالِصِ الْأَمَانَةِ؛ أَمَّا إِنْ كَانَتْ رَغْبَتُكَ عَكْسَ ذَلِكَ فَسَوْفَ أَعِيدُ لَكَ فَضَّتَكَ مِنْ عَمَلَاتِ وَأَوَانٍ، مَنْزِلِي وَمَسْكَنِي». وَإِنْ كَانَ عَلَى الطَّبِيعَةِ اسْتِرْدَادُ كُلِّ مَا عَاهَدْتُ لَنَا بِهِ مَسْبَقًا فَسَوْفَ نَقُولُ لَهَا أَيْضًا: «خُذِي رُوحِي بِحَالٍ أَفْضَلَ مِمَّا كَانَتْ عَلَيْهِ عِنْدَمَا وَهَبْتِنِي إِيَّاهَا. لَسْتُ أَعْتَرِضُ وَلَا أَحَاوِلُ التَّرَاجُعَ؛ إِنَّمَا أَرْجُو أَنْ تَأْخُذِي حَالًا مَا أَعْطَيْتِنِي إِيَّاهُ حِينَمَا كُنْتُ غَيْرِ وَاعٍ.. خُذِيهَا». أَيْنَ الضَّرْرُ فِي الْعُودَةِ إِلَى حَيْثَمَا جِئْتُ؟ سَيَتَخَلَّلُ حَيَاتِهِ الْعَسْرُ ذَاكَ الَّذِي لَا يَعْلَمُ كَيْفَ يَمُوتُ بِسُرٍ. لِذَلِكَ عَلَيْنَا أَنْ نَنْزِعَ الْقِيَمَةَ الَّتِي وَضَعْنَاهَا عَلَى ذَلِكَ الشَّيْءِ أَوَّلًا، وَنَنْظُرَ إِلَى شَهِيْقِ الْحَيَاةِ كَشَيْءٍ زَهِيدٍ. يَقُولُ شَيْشِرُونُ: «نَحْنُ نَبْغِضُ الْمُصَارَعِينَ إِذَا كَانُوا حَرِيصِينَ عَلَى إِنْقَاذِ حَيَاتِهِمْ بِأَيِّ وَسِيلَةٍ مُمْكِنَةٍ؛ نَفْضَلُهُمْ إِذَا مَا أَظْهَرُوا عَلَنًا اِزْدِرَاءَهُمْ مِنْهَا». يَجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تَدْرِكَ أَنَّ الشَّيْءَ نَفْسَهُ يَنْطَبِقُ عَلَيْنَا؛ لِأَنَّهُ عَلَى الْأَغْلَبِ مَا يَبِيعُ الْمَوْتَ هُوَ الْخَوْفُ مِنْهُ. يَقُولُ الْقَدْرُ وَهُوَ يُلَاعِبُنَا: لِمَاذَا عَلَيَّ أَنْ أَصُونَكَ أَيُّهَا الْمَخْلُوقُ الْوَضِيعُ وَالْمَلِيءُ بِالْخَوْفِ؟ لَنْ تَنَالَ سِوَى الْمَزِيدِ مِنَ الْجِرَاحِ وَالطَّعْنَاتِ؛ لِأَنَّكَ لَا تَعْلَمُ كَيْفَ تَكْشِفُ عَنْ عُنُقِكَ. لَكِنَّكَ سَتَعِيشُ لِمُدَّةٍ أَطْوَلَ وَتَمُوتُ بِسَهُولَةٍ أَكْبَرَ، إِذَا مَا تَلَقَّيْتَ ضَرْبَةَ السِّيفِ بِشِجَاعَةٍ، مِنْ دُونِ أَنْ تَسْحَبَ عُنُقَكَ أَوْ تَضَعُ يَدَيْكَ فِي طَرِيقِهِ. فَالْخَوْفُ هُوَ مَا يَجْلِبُ الْمَوْتَ عَلَيْنَا، فَمَنْ يَهَابُ الْمَوْتَ لَنْ يَفْعَلَ أَيَّ شَيْءٍ جَدِيرٍ بِرَجُلٍ حَيٍّ. لَكِنْ ذَلِكَ الَّذِي يَعْلَمُ أَنَّ هَذَا هُوَ الشَّرْطُ الَّذِي وُضِعَ أَمَامَهُ مِنْذُ لِحْظَةِ تَكْوِينِهِ سَوْفَ يَعِيشُ وَفَقًا لِهَذِهِ

الظُّروف، وفي ذات الوقت سيضمن بالمقدار نفسه ألا يأخذه أيُّ حدثٍ على حين غرّة بحكمةٍ عقله؛ لأنّه من خلال توقُّع ما سيحدث بدقة عالية سيتمكن بذلك من تخفيفِ وطأة الأذية التي ستسببها مشاكله برمّتها، والتي لن تكون مفاجئةً لمن هم مهَيَّئين ومُنْتَظرين لها، لكن سيكون لها وقعٌ قويٌّ على أولئك غير المباليين في توقُّعهم أنّ كلّ شيء سيكون على ما يُرام. الحياة ملامى بأشياء كثيرة، فهناك الأمراض والاعتقالات والكوارث والحرائق.. لم يكن أيُّ من هذا غريباً أو استثنائياً، لم أكن أعلم أيُّ نوع من الرفاق المشاكسين أولئك التي أحاطتني بهم الطبيعة. لطالما حلّق الموتُ منخفضاً فوق رأسي، وملأت أصوات المنادين والرّثاة وشموعُ الجنازات الدربَ أمام بابي، ما جعلني أشعر أغلب الأحيان بالحياة تذوي وتتكرّر في مكان ما بالقرب مني. أطاحت مشيئة عجلة الحياة والموت بالعديد من الرِّفاق الذين جمعني بهم جلساتٌ وندوات في مجلس الشيوخ، ومُحادثات يومية، وفرّقت دروب أصدقاء تشابكت أيديهم ذات يوم. هل يجب أن أتفاجأ إذا علمت أنّ الأخطار من حولي هي كالصقر الذي يضرب الهواءَ بجناحيه لينقضّ عليّ؟ كيف لهذا أن يكون مفاجئاً وهناك الكثيرُ من الأشخاص الذين يخطّطون للقيام برحلات بحريّة من دون أن يحسبوا أيُّ حساب للعاصفة المتوارية في السحب، كيف للعاصفة أن تختبئ في السحب؟ يجب ألا أخجل من الدّهَاب إلى كاتب فاشل للحصول على اقتباس جيّد. عندما تخلّي بويلوس⁽¹⁾ عن سداجة الإيباءات واللّغة الموجهة في المسارح استطاع إظهار قوّة في الفكر أكثر من كتاب التراجميديا والمسرح الهزلي، ومن ضمنها: «ما قد يحصل لشخص قد يحدث للجميع». إن سمحتَ لهذه الفكرة أن تستقرّ في حواسِّك ورأيت كلّ سيئات الآخرين (المتكررة يومياً) وكأنك تسلك طريقاً جلياً أمامك،

(1) بويلوس سيروس: كان كاتباً لاتينياً لمواعظ وعبر. تعودُ أصوله إلى سوريا حيث أحضر كعبيد إلى إيطاليا، ولكن بذكائه وفطنته حصل على عفو من سيده فأطلق سراحه وعلمه.

ستعبر طريقك قبل أن تتعرض للهجوم. وإذا لم تسلح عقلك وتحصنه ضد الأخطار قبل أوانٍ من وصولها فسيكون السيفُ قد سبق العذل. «لم أكن أتصور أن يحدث ذلك»، «وهل كنت ستصدق أن الأمور ستؤول إلى ما آلت عليه الآن؟» لمَ لا؟ هل من ثراء لا يتبعه الفقر والجوع والتسؤل؟ ما الرتبة التي بردائها البنفسجي وحفنة من العرافين لديها وأربطة أحذية أرستقراطية لم تتلطح بالبؤس فقط، بل العار والخزي والإهانات المطلقة هي من تركت عليها آلاف وصمات العار؟ أيُّ منصبٍ ملكي لم يواجه الدمار والطاغية والجلاد؟ وهذه الأمور لم يفصل بينها فاصلٌ زمنيٌّ كبير. إنَّها ساعات قليلة التي تفصل بين الجلوس على عرش والانحناء أمام آخر. اعلم حينها أن كل الظروف متغيرة، وأن ما يحدث لغيرك يمكن أن يحدث لك أيضًا. أنت غني.. ولكن هل أنت أكثر ثراءً من بومبي؟ ولكن حتى هو افتقر إلى الخبز والماء عندما غايوس -صاحبه القديم ومضيفه الجديد- فتح باب منزل قيصر ليتسنى لبومبيوس إغلاقُ منزله. وعلى الرغم من امتلاكه العديد من الأنهار المتدفقة من المنبع إلى الفم في أراضيه، كان عليه أن يتوسل لقطراتٍ من الماء. لقد مات من الجوع والظمأ في قصر أحد أقاربه، وبينما كان يتصور جوعاً كان وريثه يعدُّ جنازةً رسميةً له. لقد شغلت أعلى المناصب.. هل كانت بالسوية المطلوبة أم لم تكن كما كنت تتوقعها، أم أنَّها احتضنتك مثل سيجانوس⁽¹⁾ مع ذلك في اليوم

(1) لوشبوس إيلبوس سيجانوس: هو سياسي وقائد عسكري روماني من القرن الأول الميلادي. بدأ كقائد عسكري في الحرس البريتوري الخاص بحماية الإمبراطور أغسطس. بعد وفاة أغسطس زاد نفوذه في حكم طياريوس الذي وضع ثقته فيه وأصبح قائد الحرس البريتوري، وأضحى الرجل الأكثر نفوذاً في الإمبراطورية بعد الإمبراطور، وقد قام بمؤامراته بالتخلص من عدة رجال مهمين مثل دروسوس يوليوس قيصر ابن الإمبراطور. وقد ذكر المؤرخون أنه أصبح عشيقاً ليفيلا، وشككوا أن ابنها التوأم كانا منه، وأنها تأمرت معه لأجل قتل زوجها بالسم. استمرَّ نفوذُ سيجانوس بالصعود إلى أن أصبح القنصل. حسب ما ذكره سويتونيوس أنه خطط للانقلاب على الإمبراطور في تلك السنة، لكنَّ الإمبراطور عرف بمخططه وقام بإعدامه.

الذي رافقه فيه مجلس الشيوخ إلى السجن وقام الناس بتمزيقه إربًا إلى أن لم يبقَ منه شيءٌ ليرميه الجلاد، مَنْ هو الرَّجُل الذي كان يَنْهال عليه كُلُّ شيءٍ يمكن للآلهة أو البشر أن تقدّمه. أنتَ ملك، لا يمكنني أن أدلّك على كرويسوس⁽¹⁾ الذي عاش ليرى محرقةً جنازته تشتعل وتحمّد، وبهذا لم ينجُ من مملكته فحسب؛ بل أيضًا من مماته، ولا حتّى على يوغرطة الذي وُضِعَ عبرةً للشعب الرومانيّ بعد عامٍ من تسبّيه برعبهم. لقد رأينا بطليموس ملك إفريقيا وميثراداتس ملك أرمينيا مسجونين على يد غايوس. أحدهما أُرسِلَ إلى المنفى، والآخر كان يأمل أن يرسل إلى هناك. ومع تعاقب كلِّ هذه الأحداث الفوضويّة إن لم تعتبر أن كلَّ ما يمكن أن يحدث لا بدّ من حدوثه؛ فأنتَ تمنح المصائبَ سلطةً عليك، التي يمكن للشخص الذي يراها أو لا أن يسحقها.

ما يجب علينا ضمّانه بعد ذلك هو ألاّ نهدر طاقتنا من دون جدوى، أو في أمور لا فائدةَ منها. وأيضًا لا ننتظر متأمّلين ما لا يمكننا الوصول إليه، أو ما يجعلنا ندركُ بعدَ بذل الكثير من التّعب والوقت للحصول عليه مدى تفاهة رغباتنا. بمعنى آخر ألاّ ندعَ عملنا يصبح بلا جدوى أو نتيجة، وألاّ تكون نتائجه غير جديرةٍ بالتعب المبذول للحصول عليه؛ لأنّ الشعور بالمرارة يأتي عادةً من أمرين أوّلهما أن نفشل أو ثانيهما أن نشعرَ بالخزي من النجاح. علينا أن نوقف هذا الاندفاع الذي ينغمس فيه الكثير من الناس، ويحتشدون حول المنازل والمسارح والمُحافل. إنهم يتدخّلون في شئون غيرهم، ودائمًا ما يعطونك انطباعًا بأنهم منشغلون. إذا ما سألت أحدهم عند خروجه من المنزل «إلى أين أنت ذاهب؟» «الذي يدور في ذهنك؟» سيردُّ عليك: «أنا لا أعلم. ولكن سأرى بعض الناس وسأفعل شيئًا ما». إنهم يتجوّلون بلا هدف باحثين عن عمل، ولا

(1) كرويسوس: هو ملكٌ ليديا من الأسرة الميرنادية.

يفعلون ما يريدونه؛ بل ما يصادفهم. إنهم يتجولون بشكل فارغ، كالنمل الذي يدبُّ على الأشجار شاقًّا طريقه إلى أعلى غصن من دون سبب، ومن ثمَّ يعود للنزول. العديدُ من الأشخاص يعيشون حياتهم كمثل هذه المخلوقات فلا يمكنك ظلمهم وتسمية ذلك بالانشغال الفارغ. ستشعر بالأسف تجاه البعض عندما تراهم مشرِّعين كما لو كان هناك حريق، وغالبًا ما يتعثرون بمن في طريقهم نتيجة لتهوُّرهم فيقعون على الأرض، بينما كانوا ينادون كلَّ الوقت على شخص لا يردُّ عليهم، أو يحضرون جنازة شخص لا يعرفونه، أو محاكمة شخصٍ دائم التورط في النزاعات، أو يتقدَّمون لخطبة امرأة تتزوَّج باستمرار، وحتى إذا ما حضروا المناسبات يحملون معهم النفايات. وبعد ذلك يعودون إلى منازلهم وينزعون ثيابهم ويقسمون إنهم لا يعلمون لمَ خرجوا أو أين ذهبوا، وفي اليوم التالي يعودون إلى التجوُّل هائمين في نفس الحلقة. لذا دع كلَّ نشاطاتك موجهة نحو هدف معين، وسرَّ فيها حتَّى النهاية. ليست الأعمال هي ما تقلق الشخص، بل الانطباعات الزائفة عن الأشياء التي تقودهم للجنون؛ لأنَّه حتَّى المجانين يحتاجون إلى القليل من الأمل ليحفزهم. إنَّ المظهر الخارجي لبعض الأشياء يثيرهم؛ لأنَّ عقولهم المخدوعة لن تميِّز أنَّها بلا قيمة. الأسلوب نفسه، فإنَّ كلَّ فرد من هؤلاء الهائمين الذين يزدون عدد الحشود يتجول حول المدينة لأسباب فارغة وسخيفة، ليعيده الفجر إلى منزله من دون أن يفعل شيئًا، بعد أن كان قد تراحم على عتبات الكثير من الأشخاص من دون جدوى حيث إنَّ هؤلاء الهائمين لا ينجحون إلَّا في تحيِّة عبيدهم وخدمهم، ويُطردون من قبل الكثيرين ليجدوا أنفسهم في المنزل، فلا أحد يواجه صعوباتٍ بقدرهم. هذا الفراغُ الشَّريير يؤدي بهم بدوره إلى أكثر الرذائل المُسيئة، من تنصُّت وتلصُّص على شئون العامَّة والخاصَّة، وعلى أسرار الآخرين، ويقودهم لمعرفة الكثير من الشئون التي ليس من الآمن أن تُسمع أو أن يتمَّ التحدُّث عنها.

تخيّل لو خَطَرَ ذلك لديموقريطوس عندما بدأ: «أيُّ شخصٍ يتمنّى أن يعيش حياة هادئةً عليه ألا يرتبط بالكثير من النشاطات الخاصّة أو العامّة، التي لا تحمل معها أيّ فائدةٍ بالطبع. وإن كانت ضروريّة فعليك إذا فعلَ الكثير من الأشياء التي لا تحصى، سرًّا أو علانيّةً على حدٍّ سواء. ولكن عندما لا يستدعينا أي واجبٍ ملزم، علينا كبحُ جماح أفعالنا؛ لأنَّ الشخص المشغول بعدّة أشياء يضع نفسه تحت رحمة القدر، والتي تكون سياسته الأسلم المتبعة ألا يُغريك إلى حدٍّ بعيد، وأن يبقى قاطنًا داخل عقلك، وألا تثق به. إذا: «سأبحر ما لم يحدث شيء، وسأصبح قاضيًا ما لم يمنعني شيء، وستكون أعمالي ناجحة ما لم يعرقلها شيء»، لهذا نقول إنَّ لا شيء يحدث للرجل الحكيم بوجود توقّعاته، فنحن لا نبعده عن الفرص المتاحة أمام البشريّة بل عن أخطائهم، ولا تحدث معه الأشياء كما يتمنّى بل كما يتوقّع، ويتوقّع أن شيئًا ما يمكن أن يحدث ويعطلّ خطّطه. ولكن من المؤكّد أن العقل يمكنه أن يتأقلم بسهولة أكبر مع الحزن الناجم عن خيبات الأمل وفشل التطلّعات التي لم يكن موعودًا ومتيقنًا من حدوثها.

علينا أن نصبح أكثر مرونةً مع متغيرات الحياة، لكيلا نعلّق آمالنا بشكلٍ كبير على ما نخطّط له، وبالتالي نستطيع الانتقال والتأقلم مع الأشياء التي رمتها الصدفةُ أمامنا دون الخوف من حدوث تغييرٍ في أيّ من غاياتنا أو ظروفنا التي جلبت لنا هذا التقلّب، ولئلا يجذّ هذا العدوُّ اللدود للطمأنينة طريقه إلينا؛ لأنَّ التشبُّث بالرأي -الذي غالبًا ما يكون للقدر حصّة فيه- يجلب البؤس والقلق حتّمًا، والأكثر خطرًا هو التقلّب الذي لا يلجمُ نفسه مهما كان المكان الذي هو فيه. كلاهما عدوٌّ للسكينة، ويجدان التغيير والمثابرة أمرين مستحيلين. على أيّة حالٍ يجب إبعادُ العقل عن المواضيع الخارجيّة وتوجيهه إلى ذاته: يجب عليه أن يثق بنفسه ويعمل على أن يحوز السعادة لذاته من دون أيّ تدخّل

خارجي، وأن يقدر أشياءه الخاصة؛ يجب عليه أن يسحب نفسه قدر الإمكان من شئون الآخرين ويكرس اهتمامه لشئونه الخاصة؛ يجب ألا يشعر بالخسائر، وأن يحافظ على منظور إيجابي حتى في وجه المصائب. عندما تمّ إبلاغُ مؤسسنا زينو عن غرق سفينة، وأتاه خبرٌ بأنّ كلّ ممتلكاته قد ضاعت في أعماق المياه قال: «لقد أمرني القدرُ لأن أكون فيلسوفًا بأعباءٍ أقلّ». عندما هدّد أحدُ الطغاة بأن يقتل الفيلسوف «ثيودوروس» ويترك جثمانه من دون دفن، أجابه: «يمكنك أن تفعل ما تشاء، ومقدارُ دمائي الزهيد هذا تحت رحمتك، أمّا بالنسبة للدفن، فستكون أحقّ إذا كنت تعتقد أنّه من المهمّ بالنسبة لي ما إذا كنت سوف أتعفن تحت الأرض أم فوقها». لقد خاض جوليوس كانوس⁽¹⁾ -الذي كان رجلاً لا مثيل له، رجل يمكننا الإعجاب به رغم أنّه ولد في عصرنا- جدالاً طويلاً مع غايوس، وبينما كان يهّمُ بالرّحيل قال له فالاريس⁽²⁾: «في حال كنت تخدع نفسك بآمالٍ حمقاء، فلقد أمرت عليك بالإعدام». كان ردّه: «إني أشكرك أيّها الإمبراطور النبيل». لست متيقناً ما عناه بذلك، فهناك العديدُ من الاحتمالات تدور داخل ذهني. هل كان يقصد إهانته بأن يظهر له أنّ وحشيّته جعلت من الموت نعمة؟ أم كان يسخر منه عن طريق نوبات جنونه اليوميّة (لأنّ الناس اعتادوا أن يشكروه بعدما كان يقتل أطفالهم ويصادر ممتلكاتهم)؟ هل كان يتقبّل مصيره على أنّه إطلاق سراحٍ مرحّبٌ به؟ مهّمًا كان ما يقصده فقد كان ردًّا شجاعًا. سيقول أحدُهم إنّ كان من الممكن لغايوس أن يأمر بالإبقاء على حياته. لم يكن كانوس خائفًا من ذلك: كان من المعروف عن غايوس أنّه لا يتراجع عن كلامه في مثل هذه الأمور. هل ستصدّق بأنّ كانوس قد أمضى العشرة أيام التي سبقت

(1) جوليوس كانوس: فيلسوف روماني.

(2) فالاريس: كان طاغية أكراس في صقلية.

إعدامه من دون أيّ توتر على الإطلاق؟ إنّه لشيءٌ مذهلٌ ما قاله ذلك الرّجل، وما فعله، وكيف بقي هادئًا. كان يلعب الداما عندما استدعاه القائد الروماني بينما كان يستدعي حفنة من المَطْلوبيين. ولمّا سمع النداء، قام بعدّ قطعِهِ وقال لشريكه في اللعب: «احذِرْ أن تقومَ بادّعاء الفوز بعدَ موتي». ثمّ أشار إلى القائد قائلاً: «ستكون شاهدًا بأنني متقدّم بفارق قطعةٍ واحدة». هل تظنُّ بأنّ كانوس كان مستمتعًا بلعبته على تلك الطاولة؟ لقد كان يستمتع بمفارقة القدرِ الساخرة. شعرَ أصدقاؤه بالحزن أمام احتماليّة خسارتهم رجلاً مثله؛ لذا قال لهم: «لماذا أنتم حزينون؟ أنتم تتساءلون فيما إذا كانت الأرواح خالدة؛ سوف أعلمُ ذلك قريبًا». لم يتوقف بحثُهُ عن الحقيقة حتّى النهاية، وجعل موته موضوعًا للنقاش. رافقه أستاذه في الفلسفة، وعندما أصبحا قريين من تلك التلّة حيث كان إلهُنا سيزار يتلقى أضحيتَه اليومية قال: «ما الذي تفكر فيه الآن يا كانوس؟ ما هي حالتك الذهنية؟» أجابه كانوس: «لقد اتَّخذت القرار بأن أكون منتبهًا فيما إذا كانت الروح تدرك خروجها من الجسد في تلك اللحظة العابرة»، وقد أعطى وعدًا أنه إذا اكتشف شيئًا سوف يزور أصدقاءه بالمقابل ويكشف لهم عن ماهيّة الروح. فقط انظر إلى ذلك السكون وسط الإعصار، تلك الروح التي تستحقّ الخلود، تلك التي تتضرّع لمصيرها لكي تستطيع أن تثبت الحقيقة، وفي تلك المرحلة الأخيرة من الحياة، يستجوب الروح المغادرة، ويسعى إلى أن يتعلم شيئًا ليس فقط حتّى لحظة الموت، بل أيضًا من تجربة الموت بحدّ ذاتها. لم يلاحق أحدًا الفلسفة لمدةٍ أطول رجل عظيم بقدره، لن يتمّ التخلّي عنه بسرعة، ويجب أن يُشارَ إليه باحترام.. أيتها الروحُ المجيدة، التي أُضيفتُ إلى لائحة ضحايا غايوس، سوف نضمنُ لك الخلود.

ولكن لا جدوى من قمع الحزن الشخصي لأنه في بعض الأحيان ستسيطر علينا كراهية للجنس البشري. عندما تؤخذ بعين الاعتبار مدى ندرة البساطة وكم أن البراءة غير مألوفة، وكم هو قليل أن تجد الوفاء إلا إن كان ملائمًا لمستخدمه، وكمية الجرائم الناجحة التي قد صادفتها، وكل الأشياء الأخرى التي هي على نفس المقدار من السوء حيث يكسبها ويخسرها الرجال بفعل الرغبة، وكيف أصبح الطموح الآن بعيدًا عن أن يضع حدودًا لنفسه، لدرجة أنه أضحي مطلقًا بخبث براق؛ كل هذا يدفع العقل إلى ظلام تغطي عليه الظلال، كما لو أن هذه القيم التي لم يعد يمكن أن نأمل بها قد تمّ التخلي عنها وأصبح امتلاكها بلا فائدة. لهذا يجب علينا أن نُعلّم أنفسنا أن نعامل جميع الخطايا الشائعة ليس على أنها كريهة بل سخيفة.

ويجب علينا أن نقتدي بديموقريطوس بدلًا من هيراقليطوس⁽¹⁾، لأنه في كل مرة ظهرًا فيها على العلن، اعتاد الأخير أن يبكي والأول أن يضحك؛ كان الأخير يعتبر أن كل ما نقوم به هي مآسي، بينما اعتبرها الأول أنها حماقات. لذلك يجب علينا أن نخفف من وطأة كل شيء ونتحملهم بصبر، فأخذ الحياة بروح فكاهية والسخرية منها أكثر تحضرًا من أن نندبها. وضع في اعتبارك أيضًا أنه من يضحك خلال المآسي عوضًا عمّن ينحب عليها، يتميز عن أشقائه البشر؛ فهكذا تتأخ له فرصة مُنصفة من الأمل، بينما الآخر يتأسف بحماقة على أشياء لا يأمل أن تتحسن. وبأخذ جميع الأشياء بعين الاعتبار إنَّها لدلالة على عقل عظيم ألا يتم كبح جماح الضحك بدلًا من كبح الدموع؛ لأن الضحك يعبر عن أرق

(1) هيراقليطوس: فيلسوف يوناني في عصر ما قبل سقراط. كتب بأسلوب غامض، يغلب طابع الحزن على كتاباته، ولذا عُرف بالفيلسوف الباكي.

مشاعرنا، ويعكس أنه لا شيء عظيم أو جادّ أو بائس في كلِّ زخارف وجودنا. دع كلَّ إنسان يفكرُ في الأحداث الفردية التي تجلب لنا الفرح أو الحزن، وسيعلم حقيقة القول المشهور لبيون⁽¹⁾، إنَّ كلَّ أفعال البشر تشبه بداياتهم، وإن حياتهم ليست أكثرَ روحًا وجديةً من مرحلة تكونهم داخل الرحم، وكونهم قد وُلِدوا من لا شيء فسوف يعودون إلى لا شيء. ومع ذلك، فإنه من الأفضل أن نتقبل السلوك العام والعيوب البشرية بهدوء، وألا ننهارَ في الضحك أو الدموع. إن تألّمك على معاناة الأشخاص الآخرين يعني بؤسًا دائمًا، بينما استمتاعك بها فهي متعة لا إنسانية؛ بقدر ما هو عرضُ فارغٍ من الطيبة أن تبكي وتتصنّع نظرةً كثيبة لأن أحدهم يدفنُ ابنه. في مشاكلك الخاصة أيضًا، التصرفُ الملائم هو أن تنغمس في الحزن بقدر ما تتطلبه الطبيعة، وليس العرف؛ لأن الكثير من الأشخاص يذرفون الدموع فقط لأجل أن تتمَّ رؤيتهم وهم يكون، على الرغم من أن أعينهم تكون جافةً طالما أن لا أحد ينظر؛ لأنهم يعتبرونها صورةً سيئة ألا تبكي عندما يبكي الجميع. هذا السوء بأن نأخذ إشارتنا من الآخرين قد أصبح متأصلًا بعمق، بحيث أنه حتّى ذلك الشعور الأساسي الذي هو الحزن قد تدهورَ إلى أن أمسى تزييفًا.

علينا بعدها النظرُ إلى ذلك الجزء من الأحداث الذي يجلب لنا الحزن والقلقَ مكتسبين بالأسباب الوجيهة. عندما تحلُّ النهايات السيئة بالأشخاص الطيبين، كأنَّ يجبرُ سقراط على الموتِ في السجن، وأن يعيش روتيلْيوس⁽²⁾ في المنفى، ويتوجَّب على بومبيوس وشيشرون أن يقدِّمًا أرواحهما لأجل عملائهم، وأن يتوجَّب على كاتو -الذي هو

(1) بيون: شاعرٌ قديم من سميرنا.

(2) بوبليوس روتيلْيوس روفوس: كان جنديًا ومؤرِّخًا وخطيبًا ورجل سياسة روماني.

نموذجٍ حيٍّ للقيم الفاضلة- أن يقع ضحيةً لسيفه لئري ما يحدث له للعالم والدولة على حدٍّ سواء. هنا علينا أن نتحسّر على ما يقدمه لنا القدر من جزاءاتٍ غير مُنصفة. وماذا يمكن لأيِّ فردٍ منا أن يأمل عندما يرى المصيرَ المؤسف الذي عانى منه هؤلاء الرّجال؟ ماذا بعد ذلك؟ لاحظ كيف تجرّع كلُّ منهم من كوب مصيره، وإذا ما كانوا شجعانًا فعليك تمنّي أن تكون مثلهم، فلو ماتوا بجبنٍ كالنساء فلا شيء قد ماتَ معهم، إما أنّهم يستحقّون أن ينالوا احترامك وإعجابك بشجاعتهم كاملًا، أو لا يستحقّون تطلّعك إلى جبينهم.

ما المهينُ أكثرُ من أن يبتّ موتُ رجالٍ قد طالوا بشجاعتهم قمّة العظمة الرّعبَ في نفوس الآخرين؟ دعنا نشي مجددًا على من يستحقُّ ذلك قائلين: «إنَّ الأكثر شجاعةً هم الأكثر سعادة» لقد استطعت الإفلات من كلِّ هذه الظروف السيئة والحسد والأمراض، خرجت من السجن ليس لأنك تبدو جديرًا بهذا المصير بالنسبة للآلهة، بل لأنك غيرُ جدير به لدرجة أنّ القدر حتّى لن يكون له سلطة عليك، لكن علينا أن نضع أيدينا ونربّت على هؤلاء الذين يتراجعون، وهم قريبون من الموت يتطلّعون إلى الحياة مجددًا. لا يجب عليّ البكاء على من هو سعيدٌ أو من يبكي: فالأوّل مسح دموعي، والآخر دموعه تثبت أنّه لا يستحقُّ أن تُذرف دموعٌ عليه. هل عليّ البكاء على هرقل لأنّه حُرِق حيًّا، أو على ريغولوس⁽¹⁾ لأنّه مليء بالثقوب من تلك المسامير، أو كاتو الذي جرح

(1) كان ريغولوس أحدَ القادة الرومان الأفاضل في الحرب الأولى مع قرطاجة، حطّم أسطولاً قرطاجيًا في معركة خليج إكنوموس، وغزا إفريقيا، وهزم جيشًا قرطاجيًا، ولكن بعد مضيّ سنة هُزم شخصيًا في المعركة وأسر. وعرض عليه القرطاجيون إطلاق سراحه للعودة إلى وطنه شرطَ الموافقة على إجراء مفاوضات للسلام ثم العودة إلى قرطاجة لتبادل الأسرى، وعندما عاد إلى روما لم يشأ مجلس الشيوخ الموافقة على أيّ شرطٍ للسلام، فقد كان المجلس مصمّمًا على تحطيم الدولة القرطاجية، ووفى ريغولوس بعهده وعاد إلى قرطاجة وصرّح بأنّه أخفق في مساعيه فقبض عليه، وعذب حتّى الموت.

نفسه بنفسه؟ لقد استطاعوا جميعهم بتخليهم عن الحياة لفترة وجيزة أن يجدوا طريقهم إلى الأبدية، وبموتهم أصبحوا خالدين. يوجد مصدر آخر للقلق لا يستهان به، إذا ما كنت تكثر كفاية لتحمل موقف ما وعدم إظهار نفسك على الملأ، كالكثير من الأشخاص الذين يعيشون حياة كاذبة هدفها استعراض المظاهر فقط، لأنه من المتعب أن تمضي وقتك كله وأنت تراقب نفسك خوفاً من أن يراك أحدهم عندما يقع قناعك المعتاد. ولا يمكننا أبداً أن نرتاح عندما نعتقد أن من حولنا يراقبوننا ليقيمونا؛ لأن الكثير مما يحصل يكون لتحريرنا مما ندّعيه أمام أنفسنا. حتى إذا ما نجحت محاولات جذب الانتباه تلك فإن حياة هؤلاء الذين يعيشون خلف الأقنعة مازالت غير سارة ومليئة بالهموم. خلافاً لذلك، كم هي مليئة بالسعادة تلك الحياة الصادقة والطبيعية وغير المبهرجة ببساطتها لدرجة أنه يستحيل إخفاء طبيعتها! ولكنها تخفي خطراً بأن تجعلك محط استهزاء إذا ما انكشف كل شيء أمام الجميع؛ لأن الودّ يولد الازدراء للبعض. ومع ذلك فلا ضرر من الفضيلة الرخيصة التي تأتي نتيجة للمراقبة عن كثب، ولا بأس بأن تُحتقر لبساطتك على أن تعاني الويلات بسبب ادّعائك المستمر.

لكن دعنا نعتدل هنا، فهناك فرق كبير بين العيش البسيط والعيش اللامبالي، علينا أيضاً أن ننسحب بأنفسنا كثيراً لتعاملنا مع أشخاص لا يشبهوننا، يقلقون طبيعتنا الهادئة، ويحركون عواطفنا مجدداً ويؤججون فينا أي نقطة ضعف لم تشفَ بعد، مع ذلك فإن علينا تنويع وخلط الأمرين: العزلة والاختلاط في الزحام؛ فالأول يجعلنا نفتقد الناس، والثاني يجعلنا نفتقد أنفسنا، وكل واحدٍ منها هو علاج للآخر، العزلة ستشفي النفور من الزحام، وهو بدوره سيسفي الملل من تلك العزلة.

لا يجب أن يبقى العقل على نفس الوتيرة من التركيز المستمر، بل أن يحظى بقليلٍ من الإلهاء والتسلية، لم يكن ينجُلُ سقراط من لعبه مع الأطفال، وكاتو كان يهدئ تفكيره بقليلٍ من النيذ عندما كان يتعب من أعباء الدولة، وشيشيرون كان يلهو بتحويل انتصاراته العسكرية إلى رقص، ليس بالشكل الرقيق والمتمايل كما هي عليه اليوم؛ حيث يتمايل الرجال أثناء مشيهم بشكلٍ شهوانيٍّ أكثر من النساء؛ بل بشكل رجوليٍّ وتقليديٍّ كما كان يفعل الرجال في احتفالاتهم ولعبهم من دون التخلي عن احترامهم، فحتى أعداؤهم كانوا يشاهدونهم. يجب أن ترتاح عقولنا.. ستعود إلى العمل بشكلٍ أفضل وأكثر حماسة بعد قسطٍ من الراحة، فكلما أكثرت من تخصيص الأراضي الزراعية بغية أن تنتج من دون انقطاع، استنفدت سريعاً، فالجهد المستمر سوف يستنزف من طاقة عقلك، بينما أن فترة قصيرة من الاسترخاء ستجعل الأخير يستعيد قواه. إن الجهد المستمر يؤدي إلى نوع من البلادة العقلية والخمول، لا الأمنيات ولا طموحات الرجال ستتحرك من مكانها في أي اتجاه إذا لم يتخللها اللعب والرياضة كنوع من المتعة، ومع ذلك فالدلال المستمر سوف يدمر كل قدرات عقولنا وقواها، ففي النهاية إن النوم ضروريٌّ لإعادة الإصلاح، لكن إذا امتدَّ طوال الليل والنهار سيتحوّل إلى موت.

هنالك فرقٌ بين أن ترخي يديك وتوقف عن التمسك بشيء ما، وأن تقطع صلتك به، لقد قام المشرعون بوضع العطلة الرسمية ليمنحوا الناس الإذن بالاستمتاع، ظناً منهم أنّها ضروريةٌ لصنع نوع من التوازن في العمل، وكما ذكرت إن بعض الرجال العظماء قد أعطوا أنفسهم عطلة شهرية في أيام معينة، بينما قام آخرون بتقسيم كل يوم من حياتهم إلى فتراتٍ من الراحة والعمل، أتذكر أن هذا ما كان يفعله أسينيوس بوليو الذي ما من شيء كان يستطيع إبقاءه في العمل بعد الساعة العاشرة، لم

يكنُ يقرأ رسائله حتَّى بعدَ ذلك الوقت خوفاً من أن يطرأ أمرٌ يستوجب عليه أن يتعاملَ معه، لكنْ خلالَ هاتين الساعتين كان يخلِّص نفسه من ضجر اليوم بأكمله. البعض يأخذون قسطاً من الرَّاحة في وسط اليوم، ويبقون المهامَّ الأقلَّ أهميَّةً لساعاتٍ بعد الظهر، لقد منع أسلافنا -أيضاً- أيَّ اقتراحات جديدة في مجلس الشيوخ بعدَ الساعة العاشرة، الجيشُ أيضاً يقوم بتقسيم المناوبات وساعات المراقبة، وكان من يعود من بعثة استكشافٍ ما يعفى من المهامَّ اللَّيليَّة. علينا أن نتساهل مع عقولنا ونسمح لها بفتراتٍ راحةٍ من وقت لآخر لأتِّها بمثابة غذاءٍ لها. علينا الخروجُ للمشي قليلاً حتَّى يتنشَّط العقلُ ويستعيد قوَّته برؤية السماء واستنشاق الهواء العليل. أحياناً من الممكن أن يتنشَّط برحلة في العربة وتغيَّر المناظر المحيطة به، أو من الاختلاط بالعالم والشرب بحريَّة علينا أن نصلَّ إلى الثمالة حتَّى في بعض المناسبات لكنْ من دون أن نغرق بها؛ لأنَّه يزيل الهمومَ والمسئوليات ويثير العقلَ بالكامل، ويعالج الأحزان كما يعالج أمراضاً معيَّنة. ليبر لم يطلق عليه هذا الاسمُ لأنَّه يطلقُ اللسان؛ بل هو يحرِّر العقلَ من عبوديَّة الأعباء والهموم، ويعتقه وينشَّطه ويشجِّعه على التزاماته. هناك اعتدالٌ صحيٌّ بالنيبذ كما هو بالحريَّة. لقد كان سولون⁽¹⁾ وأركسيلاوس⁽²⁾ يجمَّان النيبذ، بينما كان كاتو هو المتَّهم بالثمالة، وأياً كان من اتَّهمه فقد جعل من هذه التُّهمة تهمَّة مشرِّفة أكثر ممَّا جعل كاتو محطَّ إهانة، لكن علينا ألا نُكثِر من الشرب حتَّى لا يتخذَه العقلُ كعادةٍ سيئة، وبالرغم من ذلك، لا ضررَ من تحفيزه للاستمتاع من دون أيِّ قيود،

(1) سولون: شاعرٌ ورجلٌ قانون أثيني، قام بسنِّ مجموعة من القوانين الإصلاحية، والتي تعارضت مع نظام الدولة المتبع آنذاك، ورغم أن إصلاحاته فشلت فيما بعد إلا أنَّه يعتبر المههَّد لقيام ما تمَّ تسميته لاحقاً بالنظام الأثيني الديمقراطي.

(2) أركسيلاوس: هو فيلسوف إغريقي، وهو مؤسس الأكاديمية الجديدة أو الوسطى.

وترك تلك الرزانة المتزمتة لبعض الوقت. سواء اتفقنا مع الشعر اليوناني بأن الجنون جميل في بعض الأحيان، أو مع بلاتو حين قال إن صوت الرجل في عقله يطرق عبثاً على أبواب الشعر، أو مع أرسطو بأنه لا وجود لعقل عظيم من دون القليل من الجنون، وأن العقل المثار بعمق شديد وحده من يستطيع أن يأتي بشيء عظيم يفوق قوة عقول الآخرين، عندما يهزأ من الأفكار اليومية المألوفة، ويسمو عالياً على أجنحة الوحي الإلهية، عندها فقط سيبدو بأنه يقول شيئاً أنبل وأعظم من أي صوت فاني آخر. طالما أنه مكبل برشده فلن يصل إلى أي شموخ أو مقام رفيع.. لا بد له من الابتعاد والتخلي عن مساره في السباق منافساً خصمه، وجاعلاً إياه يسرع في مساره حتى يصل إلى الذروة التي كان يخشى صعودها بنفسه.

إذا، هذه هي يا عزيزي سيرينوس الطرق التي ستحفظ لك سكينتك وهدوءك وتعيدهما إليك، وتقاوم الخطايا التي تتخلل داخلك بغتة. لكن كن على يقين أن أياً من هذه الطرق سيكون كافياً لأشخاص يحاولون الحفاظ على أشياء هشة إلا إذا كانت عقولهم المتقلبة مُحاطة بحرص مستمرٍ ويقظ.

مكتبة

t.me/soramnqraa

هل الحياة قصيرة حقًا؟!

إنَّ الحياة مُقلقة جدًّا، وقصيرةٌ بالنسبة إلى أولئك الذين ينسون الماضي، يُحملون الحاضر، ويخافون المستقبل. وعندما تحكّم قيودُ الموت قبضتَها سيدرك أولئك البائسون أنهم كانوا مُنهمكين باللا شيء. وحقيقة أنهم يتذرعون بالموت لا تثبت أن حياتهم كانت طويلة؛ بل إنَّ جهلهم قد ألقى عليهم بمشاعرٍ مضطربة ما جعلهم يرمون بأنفسهم أمام أكثر الأشياء التي يُحشونها.

الأيام تبدو لهم طويلة، يشكون من مرور ساعات النهار ببطء، ولا يعلمون كيف يتخلَّصون منه لجعل الوقت يمر. يريدون القفز فوق تلك الأيام بشتَّى الطرق. وأيُّ تأخير في الأحداث المنتظرة يولّد ضجرًا بالنسبة إليهم. ومع ذلك، فإنَّ وقتَ البهجة الحقيقية يكون قصيرًا وسريعًا، لأنَّهم يندفعون من تسلية إلى أخرى ولا يستطيعون الثبات عند رغبة واحدة.

تأمل العمل الذي أنجزته في هذه الحياة الطويلة، وكم من شخصٍ قد نهب من حياتك من دون درايتك بالأمر حتى. انظر كم بقي لك من حصَّتك القليلة، ستجد أنك تحتضر قبل أوإناك.

مكتبة

t.me/soramnqraa



منشورات حياة
HAYAT PUBLISHING